بسم الله الرحمن الرحيم

(اغتصاب ضمير)

أعطى المقدم (حازم فاروق) أوامره الصارمة عبر أجهزة اللاسلكي، إلى القوات المحاصرة لأحد أخطر أوكار الجريمة في بولاق الدكرور بالهجوم فورا، لم تكد الموجات تحمل صوته الصارم حتى انطلقت قوات الشرطة عبر الشارع الضيق تهاجم المنزل المكون من أربعة طوابق، صعدوا درجات السلم بأقدامهم الثقيلة في سرعة وقوة فبدا المنزل كأنه يهتز بفعل زلزال بقوة خمسة ريختر، اندفع عدد من قوات الشرطة يقتحمون كل طابق وهم يشهرون أسلحتهم لاصطياد أعضاء تلك العصابة المارقة، سبقهم المقدم حازم إلى السطح مشهرا مسدسه أمامه في تحفز، ثم أشار للقوات باقتحام الشقة الأخيرة فاستجابوا في سرعة، ضرب اثنين من العساكر بأقدامهم الباب فانفتح بعنف كاشفا ردهة واسعة يتوسطها مائدة وضعت عليها زجاجة خمر وأطباق فارغة، في حين وضعت عدة صناديق مغلقة أسفل المائدة، دلف إلى المكان باقي الأفراد وهم يصوبون أسلحتهم في تحفز إلى كل مكان، لم يكد المقدم رأفت يلحقهم إلى الداخل حتى سمعوا صوت أقدام ترتطم بالأرض بعد أن عبر صاحبها النافذة في الغرفة المجاورة ثم يعدو فارا من المكان في سرعة وخفة، أسرع حازم قافزا عبر النافذة نفسها في رشاقة ثم انطلق خلف الشاب الذي يعدو عبر الأسطح المتلاصقة كالقط البري، حاول حازم إصابته بسلاحه لكنه أخطأه أكثر من مرة، أعاد مسدسه إلى جرابه ثم عدا خلفه بكل ما يملك من سرعة محاولا اللحاق به قبل أن يفقده إلى الأبد، لم تكن مهمته سهلة وهو يعدو عبر الأسطح المتلاصقة وتحت أحبال الغسيل المتناثرة، لكن ذلك لم يثنيه أبدا عن مواصلة

العدو خلف غريمه في إصرار طالما ميزه، فنجاح مهمته تتوقف على الإمساك بذلك الشاب الذي يكاد يختفي من أمام عينيه لسرعته الكبيرة ومعرفته المسبقة بخريطة المنطقة، تابع حازم ببصره ذلك الشاب الذي يعدو بسرعة وشعره الطويل يتهافت من خلفه لسرعته الكبيرة، أطلق حازم الرصاص نحو غريمه مستهدفا ذراعيه دون أن يصيبه في مقتل، لكن سرعة الشاب وحركته غير المتوقعة أنقذته مؤقتا من رصاص المقدم بالرغم من مهارته في التصويب، أكمل حازم مطاردته وهو يفكر في طلب تعزيزات لمحاصرته، لم يكد يصل بفكره إلى تلك النقطة حتى فوجيء بذلك المجرم يلتفت إليه ثم يخرج مسدسه في لمح البصر و يطلق عليه رصاصتان قاتلتان، ألقى حازم جسده أرضا في سرعة وهو يشعر بحرارة الرصاصتان وهما تعبران من فوق رأسه بسنتيمترات قليلة، منح ذلك الشاب الفرصة من جديد لاستكمال عدوه والإبتعاد عن غريمه بمسافة كبيرة، لم يكن حازم بالخصم الذي يستسلم بسهولة مهما كانت المخاطر والصعوبات والتحديات، فهب واقفا على قدميه ثم انطلق بأقصى سرعته خلف الشاب الذي كان في تلك اللحظة يقفز من سطح عالٍ إلى سطح منخفض بجسارة كبيرة، ثم يتشبث بالسطح التالي الذي يعلوه بمترين في خفة قرد ويهبط بقدميه على الأرض، ما إن استقرت قدماه حتى أطلق رصاصاته مرة أخرى نحو حازم ثم يكمل عدوه السريع من جديد، تفادى المقدم حازم الرصاص مرة أخرى محتميا بحائط أحد الأسطح، تطلع من خلف الحائط في حذر إلى مكان غريمه، ولما لم يجده تلقاء بصره هرع خلف الشاب عبر الأسطح حتى وصل إلى ذلك السطح المرتفع، ودون تردد هبط لأسفل في خفة وما إن لامست قدماه السطح حتى ثنى ركبتيه، ثم انطلق مرة أخرى إلى السطح المرتفع الآخر دافعا جسده إلى أعلى بكل قوته، استقر

على السطح المرتفع باحثا بعينيه عن ذلك الشاب الذي كان قد اختفى تماما دون أن يترك خلفه أدنى أثر، جز حازم على أسنانه في غيظ وهو يدور ببصره في كل مكان بلهفة وقلق، لفت نظره نافذة مفتوحة عند أحد الأسطح القريبة منه، داخله الأمل من جديد فأخرج اللاسلكي من جيبه ثم صاح عبره في صرامة :

إلى جميع القوات ضعوا سياجا أمنيا حول المنطقة كلها وعدم السماح لأي كائن بالنزول إلى الشارع دون تفتيش.

أنهى الإتصال ثم عدا نحو السطح ذو النافذة المفتوحة، كان يعدو هذه المرة بحذر بالغ خشية أن يفاجئه ذلك الشاب بإطلاق نار آخر، اقترب من السطح في بطأ وحذر، تطلع من مكانه إلى النافذة المفتوحة لبرهة ثم قفز إلى الأرض محاولا امتصاص صوت ارتطامه بالأرض قدر المستطاع، مال بجذعه في رشاقة أسفل النافذة وحاول التقاط أي صوت في الداخل، لكن الوضع كان يبدو مطمئنا إلى حد كبير، فرد قامته ثم دلف إلى الداخل في سرعة للحاق بذلك الشاب قبل أن يهرب للأبد ، لم يكد يخطو إلى الداخل حتى التقطت أذنه حركة خافتة حذرة من خلفه، هنا فقط ظهرت قيمة التدريبات المكثفة التي تلقاها منذ التحاقه بشرطة مكافحة المخدرات، فما أن أحس بتلك الحركة الخبيثة من خلفه حتى أمال جذعه بمرونة كبيرة ناحية اليمين، في نفس لحظة انطلاق الرصاصة التي استهدفت موضع القلب تماما، وهبته تلك الحركة السريعة الرشيقة حياة جديدة، لكن ليس بدون إصابات، فمهما بلغت سرعته ورشاقته فلم يكن ليتفوق على رصاصة انطلقت بسرعة تعادل سرعة الصوت تقريبا، أصابت الرصاصة ذراعه الأيسر بقسوة فأطلق آهة ألم وهو يسقط أرضا بعنف، حاول ذلك الشاب إصابته من جديد مستغلا سقوطه ووضعه الحرج، لكن

حازم لم يسمح لنفسه أن تظل في هذا الوضع المزري أكثر من ثانيتين فقط، فاستل مسدسه ثم صوبه بسرعة إلى الشاب الذي كان على وشك أن يطلق النار بدوره، كانت مباراة مثيرة تبارى فيها الغريمين أيهما أسرع في إطلاق النار، وفي لحظة واحدة ضغطت أصابعهما الزناد دون أن تنطلق رصاصة واحدة من مسدسيهما، كانت مفاجأة مذهلة أثلجت صدرهما وجعلتهما يلتقطان أنفاسهما في راحة عميقة، لم ينتظر ذلك الشاب حتى يقوم حازم من سقطته ففر هاربا دون أن يلقي نظرة خلفه، هب حازم واقفا ممسكا ذراعه المصاب وهو يتابعه ببصره في غضب، لم تكن فكرة الإستسلام تراوده عن نفسه في أي لحظة من لحظات عمره، ولم يكن ينوي الشذوذ عن هذه القاعدة أبدا حتى وذراعه تنزف بغزارة، مزق قميصه بأسنانه ثم ربط ذراعه بقماشة انتزعها من قميصه الممزق فصبغت باللون الأحمر فور وضعها على موضع الإصابة، ربط العصابة على موضع الإصابة لإيقاف النزيف محتملا الألم، التقط نفسا عميقا ثم انطلق يعدو بأقصى ما يمكنه خلف الشاب الذي أبدى صنوفا من اللياقة و الجرأة والذكاء أثارت إعجابه بشدة، تمنى لو كان ذلك الشاب الطويل القوي ضابط شرطة يحارب الفساد وليس ينافح عنه ويجاهد في سبيله، تسائل وهو يلهث في قوة أثناء عدوه : كيف يتحول هؤلاء الناس من مواطنين صالحين إلى مجرمين وفاسدين و تجار مخدرات و مغتصبون؟ ما هو ذلك الشيء الذي يتغير داخلهم فيهدم لديهم كل أسس الصلاح وقواعد الخير، إنه بلا شك الضمير، ذلك الجدار السميك من الأخلاق والمباديء والقيم الذي يعمل كعازل واقي من الفساد الخارجي ، كيف لهذا الجدار أن ينهدم فيصير الإنسان إلى النقيض من ذلك، يحارب الخير والصلاح والعفة والكرامة والإنسانية، ذلك الجدار يبدو أنه قد اخترقه شيء بالغ القسوة

فخلاه جدارا رقيقا لا يحمي من ورائه، إن ضميرهم مغتصب بفعل عوامل التربية السيئة والبيئة الفاسدة وأطماعهم غير المحدودة، نعم إن هذا هو أفضل وصف لهم، ضمير مغتَصب، فهم قبل أن يصيروا مغتصبين لأعراض وأموال غيرهم تعرضوا لاغتصاب قاس لضمائرهم المسكينة. وصل عند السطح الأخير ثم هبط عبر سلالمه إلى أسفل دون أن يتأكد من سلوك غريمه نفس الطريق، لكنه لم يجد خيارا آخر، عبر مدخل البناية إلى الخارج في حذر، لم يكن تأكده من عدم حصول غريمه على سلاح آخر يمنحه طمأنينة كاملة، لذا غادر المبنى في حذر من هجوم غريمه مستغلا إصابته، كان يعلم أنه ضيق عليه الخناق ولم يعد له مكان للفرار، لم يكد يخرج حازم من المبنى حتى انقض عليه الشاب و هو يهوى على رأسه بعصا غليظة، تفادى حازم الضربة بحركة حادة آلمت ذراعه، ثم أطلق قدمه في وجه الشاب فدفعته إلى الخلف، سقط الشاب وهو يطلق صرخة ألم وسخط و اعتراض، ظل الشاب على حالته للحظات ثم قام من سقطته في بطأ دون أن يبعد عينيه عن حازم لحظة واحدة، راقبه حازم وهو يقوم في حذر بالغ، لم يكن من الذكاء الإلتحام معه في قتال عنيف وهو يعاني من جراء إصابته، كان يحاول كسب الوقت لصالحه حتى تأتي القوات لمؤازرته، و لعل الشاب انتبه لما ينتويه فاتخذ وضعا قتاليا و ارتسمت اعلى وجهه الشراسة، تطلع إليه حازم في استخفاف و هو يمسك ذراعه ليوقف نزيف، قال في تهكم :

أنت تمارس رياضة قتالية إذن .

لم يبدو على ذلك الشاب أنه سمعه وهو يهم بالقتال، استعد حازم للقتال هو الآخر متجاهلا آلامه المبرحة، هم الشاب بالإلتحام الفوري، لكن بغتة، سقط تلفاز قديم من الطابق الثاني على رأس

الشاب مباشرة في عنف فأفقده الوعي على الفور، تطلع رأفت بعين مذهولتين إلى أعلى فطالعته أمرأة عجوز تصيح في حدة غاضبة :

أشرف هذا شاب فاسد ويستحق الموت لشروره وآثامه.

بالرغم من دهشته و ألمه الحاد وجد الرائد حازم نفسه يضحك و هو يتطلع إلى جسد الشاب الساكن تماما، و رأسه التي بدأت تنزف خيوطا عريضة من الدماء.

****

وقف المقدم حازم أمام اللواء زكريا راشد بعد أن أدى التحية في احترام، تطلع الأخير في إشفاق إلى ذراع حازم المعلقة بعصابة بيضاء من رقبته، سمح له بالجلوس بإشارة من يده ثم سأله في اهتمام :

كيف حال ذراعك الآن ياحازم، هل تشعر بتحسن؟

بخير حال ياسيادة اللواء، ولكن يلزم بعض الوقت للشفاء.

هز اللواء رأسه متفهما، ثم قال :

نجاحك في القبض على أشرف البغدادي ساهم في القبض على أعضاء شبكة المخدرات التي كان يقودها، والبالغ عددها ثلاثة وعشرون رجلا وامرأة.

قال حازم بتواضع جم :

حدث هذا بتوفيق من الله وتعاون كامل من جميع أفراد الشرطة الذين شاركوا في العملية.

ابتسم اللواء ابتسامة واسعة قبل أن تختفي تماما و يحل مكانها وجه جاد صارم.

سأله حازم في حيرة :

كنت أود أن أعرف ياسيدى، كيف يمتلك هذا الشاب المدعو أشرف كل تلك المهارات الحركية والذكاء الكبير، لقد فاجأتني قدراته ولم أستطع استيعابها بسهولة.

أشار اللواء بإصبعه السبابة قائلا :

هذا درس هام للغاية ينبغي أن تتعلمه، تعامل مع خصمك على أساس أنه أقوى منك بمراحل حتى يظهر العكس، الإستهانة بالخصم هي السبب الرئيسي في فشل الكثير من المهمات، أما بالنسبة لقدراته فملفه الذي بين أيدينا يوضح أنه قد تلقى تدريباته في إيطاليا.

ردد حازم في دهشة :

في إيطاليا! ولماذا إيطاليا بالذات.

معلوماتنا تشير إلى أنه تلقى تدريبات مكثفة داخل مكان ينتمي لعصابة من أخطر عصابات المافيا الإيطالية، عصابة (اندرانجيتا).

ارتفع حاجبا حازم حتى كادا يصلا إلى منبت شعره، لم يكن يتخيل أبدا أن تصل الأمور لهذا الحد، ولكن يبدو أن الأمور تطورت إلى حد لم يسبق له مثيل.

هل استطاعت تلك العصابة التوغل كثيرا داخل مجتمعنا؟

قال اللواء :

لا أعتقد هذا، ولكن هذا ليس معناه أيضا أنه ليس هناك خطورة كبيرة مما وصلوا إليه حتى الآن، وهذا الرقم الذي ذكرته لك منذ قليل خير دليل على هذا.

صمت حازم بعض الوقت مفكرا ثم هب من مقعده و قال :

اسمح لي ياسيدي بالإطلاع على أوراق القضية عن كثب، فأنا أريد أن أباشر كل ما يتعلق بتلك العصابة بنفسي.

أشار إليه اللواء بالجلوس في حزم قائلا :

لا تجعل حماسك يخدعك يارجل، بالرغم من أن هذه العصابة لم تتوغل عميقا في جسد المجتمع، إلا أنها كالعلقة التي لا تترك مكانها الذي تمتص منه الدماء التي تحتاجها بسهولة، فهذه العصابة تسيطر على ثمانون في المائة من تجارة الكوكايين في العالم، وهذا معناه أننا أمام أخطبوط عملاق يريد مد أذرعه لكل مكان في العالم، وهذه الشبكة التي استطعنا إسقاطها ربما ليست الوحيدة، كل ما علينا فعله هو أخذ الحيطة والحذر قبل اتخاذ أي خطوة، حتى لا نتسبب لأنفسنا بأذى لم ينجحوا هم أنفسهم في صنعه.

هز حازم رأسه في اقتناع، فاستطرد رئيسه :

ستراجع أوراق القضية بتركيز واستفاضة، أريدك أن تعرف عنهم كل شيء، أساليبهم، خططهم، أماكن تمركزهم، حتى طعامهم وشرابهم، بحيث نكون مستعدين إذا ما حدثت محاولة أخرى لاختراقنا، مفهوم؟

مفهوم ياسيادة اللواء؟

هناك شيء أخير أود إخبارك به؟

ماهو ياسيدي؟

قال اللواء في حيرة واضحة:

ذلك الشاب(أشرف البغدادي) يريد مقابلتك لأمر ما لم يبح به.

ملأت الحيرة وجه حازم أيضا لكنه قال :

و ما الذي سيضيرنا ياسيدي لو قابلته لأنظر ماذا يريد، ربما أستطيع إقناعه بالتعاون معنا.

مط اللواء شفتيه ثم تمتم :

ربما، على أي حال اذهب إليه الآن وأخبرني بآخر التطورات.

هب حازم واقفا في نشاط على الرغم من آلام ذراعه التي لم تنمحي بعد، أدى التحية ثم ذهب لذلك المجرم الذي طلب مقابلته في إصرار. تسائل حازم في قلق: هل يستطيع إقناعه بالتعاون معه أم أن خياله قد شطح بعيدا كما يحدث أحيانا، ولم يجد إجابة.

****

وقف حازم يتأمل في استهتار مستفز الشاب طويل الشعر والقامة و الذي يقف داخل زنزانته كفأر حقير وقد ربطت رأسه بعِصابة بيضاء سميكة، العجيب أن ذلك الشاب كان يبادله نفس النظرة الساخرة الهازئة المستهترة، أدرك حازم من أنه يحاول أن يكسر إحساس النصر الجارف داخله، تطلع الشاب في سخرية إلى ذراعه المصابة ثم قال:

يؤسفني أنني تسببتُ لك في تلك الإصابة، لم أكن أحب أن تتطور الأمور لهذا الحد لكنها ضرورات العمل كما تعلم .

قال وهو يمنحه ابتسامة أكثر تهكما :

لا تحزن لأجلي أيها الفتى فأنا معتاد على تلقي الإصابات أثناء عملي ممن باعوا ضمائرهم للشيطان.

أطلق أشرف ضحكة عالية ثم قال ساخرا متهكما :

لا تمنح نفسك انتصارا وهميا يا هذا، فلولا تلك العجوز التي ضحت بتلفازها القديم من أجل موتي لما استطعتَ التغلب علي.

قال حازم بنبرة واثقة :

في عملنا لا يهم من يحرز الهدف الأخير مادام الفريق بكامله قد شارك في صنعه، المهم هو تطهير المجتمع من أمثالك الخائنين الفاسدين.

أمسك أشرف البغدادي بقضبان زنزانته وهو يقول بنبرة انتقام وتشفي :

هل تظن أن إحراز ذلك الهدف يعني كسب المباراة، أنت واهم، دعني أخبرك بالحقائق المرة ولكن حاول أن تتقبلها في هدوء، تلك العجوز التي أحرزت هدف الفوز لن تستطيع اللعب مرة أخرى للأسف مما يعني ان تبحث عن لاعب آخر ليحل مكانها، وبالنسبة للفريق الذي تظن أنك انتصرتَ عليه فليس هو الفريق الوحيد الجاهز للعب، بل هناك فرق احتياطية أخرى تشارك في تدريبات مكثفة انتظارا لخوض مباريات مثيرة وحاسمة.

انعقد حاجبا حازم في غضب وقلق بالغين، استل هاتفه المحمول ثم أجرى اتصالا باللواء يطلب منه إرسال بعض الرجال لحماية تلك العجوز التي ساعدته في القبض على ذلك المجرم، أنهى الإتصال فطالعه وجه أشرف يبتسم في سخرية و ثقة وتشفي،

اقترب منه حازم حتى كاد يلصق وجهه بالقضبان الحديدية، تطلع إليه في صرامة ثم قال في قسوة وشراسة:

لو حدث لهذه العجوز أدنى أذى فلن يكفيني قتلك بطريقة عادية.

قال أشرف متهكما :

احتفظ بقوتك يارجل فستحتاجها في القريب العاجل لإنقاذ أناس أكثر أهمية لديك من تلك العجوز، أكثر أهمية بكثير.

لم يستطع حازم تمالك نفسه مع ذلك التهديد الواضح السافر، مد يديه عبر القضبان فأمسك بتلابيبه صارخا :

يبدو أنك نسيتَ وضعك المزري الحقير داخل هذه الزنزانة الوضيعة، لكني سأحرص على تذكيرك إياه عن طريق رجالي في كل الوقت.

دفع الشاب يدي المقدم بعيدا بقسوة آلمت ذراع الأخير دون أن يطلق آهة ألم، ابتسم أشرف في استخفاف ثم عاد أدراجه جالسا في ركن الزنزانة وهو ينظر إلى ساعته، قال بعد برهة من الصمت :

يبدو أن رجالك الأفذاذ لن يستطيعوا إنقاذ تلك العجوز المسكينة، للأسف.

قال عبارته وهو يمط شفتيه في أسى ظاهر، هرع حازم مسرعا إلى مكتبه والقلق يرج قلبه كزلزال عنيف وهو يتسائل في ذعر بالغ:

هل تلك التهديدات التي أطلقها ذلك الشاب تمثل الحقيقة بالفعل أم أنها مجرد فقاعات فارغة لا جدوى من ورائها؟

ستؤكد تلك العجوز المسكينة الإجابة عن ذلك السؤال الخطير، للأسف.

****

شرع حازم يذرع مكتبه جيئة وذهابا والقلق يعصف به عصفا، رأى بعين خياله تلك العجوز وهي مقتولة بطريقة عنيفة قاسية، نفض تلك الفكرة عن عقله بسرعه ثم تطلع إلى ساعته في قلق و لهفة، بغتة انطلق رنين هاتفه فاختطفه من فوق مكتبه هاتفا :

هل أصاب تلك العجوز أذى؟

استمع لمحدثه للحظات ثم بدا على وجهه آثار الصدمة واضحة وهو يجلس على مقعده في بطأ و انهيار، حاول كف عينيه عن البكاء بكل إرادته، لكن ذلك الشلال كان أقوى من أن يمنعه مانع، سيطر الحزن على نفسه بقوة دون أن يحاول مقاومته، و ترك نفسه لمشاعره المضطربة تقوده بضع دقائق، ثم استنفر إرادته الصلبة و هب قائما كليث غاضب، كانت أنفاسه تتردد في صدره كأنما صعد السلم عدوا إلى الطابق الخامس، بدأ الغضب يحل محل الحزن حتى استلبه مكانه، اندفع كالمجنون إلى قسم الشرطة الذي يحتوي على زنزانة أشرف البغدادي، وقف أمامه يتطلع إليه في بغض وكراهية لا حدود لهما، أمر مأمور القسم بفتح الزنزانة، هم المأمور بالإعتراض لولا أن رن هاتف حازم فرفعه إلى أذنه، استمع إلى محدثه للحظات قبل أن يخبره أنه قادم على الفور، أنهى الإتصال ثم حدج حازم الشاب في غضب صارم و قال مهددا :

لي معك مقابلة قريبا.

تطلع إليه أشرف في سخرية قائلا :

أرجوا أن تؤخر ذلك حتى يشفى ذراعك، فأنا لا أريد سماع أي أعذار منك عندما أقوم بهزيمتك.

تطلع إليه حازم لحظات في صمت كبركان خامد يخفي أسفله حمما ملتهبة، ثم غادر المكان متجها إلى منزل العجوز الميتة، كان يريد إلقاء نظرة أخيرة عليها قبل نقلها إلى مشرحة زينهم، ولكن الأهم هو سماع الأوصاف التي أدلى بها الجيران عن القاتل الذي فر هاربا بعد أن أنهى مهمته القذرة، أوقف سيارته بعيدا عن منزل العجوز حيث كان هناك الكثير من سيارات الشرطة وعربات الإسعاف التي احتلت حيوا كبيرا حول المنزل، صعد درجات السلم المتهالك في سرعة، دفع رجال الإسعاف والشرطة من أمامه في رفق، ثم وقف أمام الجسد المسجى في تأثر واضح، لم ينسى دورها الهام في القبض على المجرم و زجه في زنزانته، لم يستطع منع نفسه من إلقاء نظرة أخيرة عليها بالرغم من إشمئزازه، سحب الملائة البيضاء التي تغطيها من ناحية الوجه في بطأ متردد، لم يكد يرى وجهها حتى أغمض عينيه في ألم حاد، لقد حطموا رأسها جزاءا لشهامتها، كأنه يريد رسالة مفادها العين بالعين والسن بالسن، زادت كراهيته لذلك الشاب أضعافا مضاعفة، لكن بالرغم من غضبه العميق استطاع تنحيته مؤقتا وراح يفكر بعمق في التطورات الجديدة، كان يعتقد أنه قبض على أفراد منظمة المافيا كلها لكن ظنه بأن خاطئا، فهاهم أفرادها طلقاء يعيثون الفساد في الأرض دون رادع، ولا ينبغي أبدا أن يكتفي بدور المشاهد الغاضب دون أن يصدر منه رد فعل عنيف يزيل بقايا تلك المنظمة من الوجود تماما، غطى الجثة بالملائة البيضاء مرة أخرى، شعر أن روحه تتلوى وتتمرغ على عتبة الندم، خرج من المنزل يجر أحزانه الثقيلة خلفه، لحق به المقدم رأفت قائلا في إشفاق:

لا تحزن ياصديقي، فالمجرم سيلقى جزاءه عاجلا غير آجل، أعدك بهذا.

مط حازم شفتيه ثم قال في غضب مكتوم :

لا تكن مثاليا يارأفت، فالفاعل ليس مجرد مجرم كان ينوي السرقة، لكنه شخص ينتمي لتنظيم رهيب يبغي تدمير المجتمع وتقطيع أوصاله، هؤلاء القوم لا يتركون أحد رجالهم دون حمايته حتى لا يفقد أتباعهم الثقة فيهم.

تسائل رأفت في حذر :

وما العمل إذن؟

الإجابة تكمن عند هذا الوغد الملقى في زنزانته، غدا سأذهب إليه لاستجوابه، و لنرى قوة تحمله!

قال رأفت في يأس:

مما سمعته عن هذا الوغد أكاد أجزم أنه لن ينبس ببنت شفة.

انعقد حاجبا حازم في شدة، احتقن وجهه و هو يصيح:

ليس في شريعتي ترك المجرمون يمارسون جرائمهم دون حساب، سأجبره على البوح بما لديه حتى لو قطعتُ أطرافه الواحدة تلو الأخرى.

تمتم رأفت في خفوت:

أتمنى أن تنجح في مسعاك، ولكن تذكر أن اللواء زكريا لن يسمح لك بتعدي صلاحياتك أبدا.

صاح حازم في حدة:

سأفعلها إذن دون معرفته.

قال عبارته ثم استقل سيارته و انطلق عائدا إلى بيته ليستريح من عناء يوم شاق، وليختم يوما من حياته القاسية يتمنى أن ينمحي من ذاكرته للأبد .

****

كانت خطيبته الدكتورة (رقية إسماعيل) طبيبة النساء والتوليد قد أرسلت له صباحا رسالة على تطبيق الواتس، تخبره فيها أنها ستطهي له ملوخية بالأرانب وأنها تنتظره ليتناولا العشاء سويا، ثم ختمت رسالتها بوضع رمز القلب الأحمر. كان هذا أسلوبها غير المباشر لتخبره أنها ليست غاضبة منه بسبب حدته معها أثناء حديثهما الأخير، لكنه لم يطلع على رسالتها إلا عند عودته إلى منزله بسبب مطاردته لأفراد تلك العصابة، ثم ذهابه إلى المستشفى لعلاج إصابته. خلع حذائه ثم فك ربطة عنقه وألقاها في إهمال على الأريكة المقابلة للباب في الردهة الواسعة، قبل أن يترك جسده يسقط عليها في إرهاق واضح، تطلع إلى الرسالة مرة أخرى وهو يتذكر حديثهما الأخير الذي احتدم فيه النقاش بينهما حتى تدخل حمويه لتهدئة أعصابهما الثائرة، كان سبب ذلك النقاش الحاد هو استمرار رقية في عملها حتى التاسعة مساءا في بعض الأحيان، ثم عودتها إلى منزلها بمفردها بالرغم مما بسببه ذلك من خطورة عليها، اطلع على رسالتها في ضيق وهو يغمغم :

كم أنتي عنيدة يارقية، أخبرتك أكثر من مرة أن هذا الزمن لا أمان فيه و لكن رأسك صلبة كالصخر.

حاول الإتصال بها كي يعتذر لها عن عدم اطلاعه على رسالتها بسبب انشغاله بعمله، لكنها تجاهلت اتصاله المستمر و هذا معناه

أنها غاضبة منه بشدة، كان يعلم كيف تفكر رقية، ويعلم عصبيتها الزائدة بسبب انشغاله المستمر عنها. أرسل لها عبر الواتس رسالة قال فيها (أنا لم أطلع على الرسالة لظروف تعرضتّ لها في عملي خارجة عن إرادتي، سأزورك مساء الغد في المنزل لنتناول العشاء معا، أحبك) وضع الهاتف جانبا ثم قام و اتجه إلى فراشه في لهفة، ما إن استقر جسده على الفراش حتى استسلم لسلطان النوم الذي استلبه في قوة طاغية.

****

استيقظ حازم في العاشرة صباحا، و ما إن فتح عينيه حتى تناول هاتفه في لهفة، دلف إلى تطبيق الواتس ثم أحس بالضيق عندما لم يجد أي رسالة جديدة قادمة من خطيبته بالرغم من إشعار الواتس الذي يثبت اطلاعها على فحوى رسالته. تجاهلها له يضني أعصابه ويصهر قلبه، مط شفتيه في ضيق ثم مضى إلى الحمام للإغتسال متفاديا وصول الماء إلى ذراعه المصابة. أدى صلاة الصبح ثم شرع في تجهيز إفطارا بسيطا، لم يكن من عادته الإستيقاظ بعد السادسة صباحا إلا عندما يعاني إرهاقا شديدا. تناول إفطاره في عجالة، ثم ارتدي ملابسه و ذهب مباشرة إلى مكتب اللواء زكريا، فتح الباب و دلف بعد أن طرق الباب عدة مرات، تطلع إليه اللواء في هدوء وعلى شفتيه تلوح ابتسامة صافية، صافحه حازم في احترام ثم جلس أمامه وقال :

سيادة اللواء أرجوا أن تسمح لي بزيارة أشرف البغدادي في زنزانته لاستخلاص مالديه من معلومات .

ردد اللواء في هدوء:

زيارة! ثم ستطرد :

كلمة زيارة هذه تخفي ما تنوي فعله عندما تنفرد به، لكني أريدك أن تعلم أنك قد قمتَ بواجبك خير قيام، ولم تتوانى على المخاطرة بنفسك للقبض على أفراد تلك العصابة، أعلم أيضا شعورك بالمرارة لم أصاب تلك العجوز المسكينة من حادث أليم، لكن ينبغي أن تعرف أن دورك قد انتهى وحان دور خبراء الإستجواب.

قال حازم في رجاء :

كل ما كنت أريده معرفة من قتل تلك العجوز المسكينة.

وهل تعتقد أنه سيدلي بتلك المعلومة بعد أن تسدد في وجهه لكمات قاسية؟ هذا الوغد صلب كالفولاذ.

صمت حازم بعض الوقت ثم قال في إذعان و خضوع :

حسنا ياسيدي كما ترى، كل ما آمله هو أن تستخلصوا منه ما لديه من معلومات قبل أن يقوم بعملية انتقامية أخرى.

أجابه اللواء في سرعة :

غدا سنرسل له خبير استجواب لنزع ما لديه من معلومات بالطريقة التي يراها ناجعة.

ردد حازم في ضيق :

هل سننتظر ياسيدي حتى يحل غدا، قد يحدث الكثير قبل حلول الغد.

مط اللواء شفتيه في ضيق ثم قال في نفاذ صبر:

لن يتوفر خبير استجواب حتى الغد، وأنت غير مستعد لاستجوابه بالطريقة المتعارف عليها، فعصبيتك وغضبك قد يستغلهم ذلك

المجرم للتلاعب بك، لذا سننتظر حتى صباح الغد و سنمنعه من الإتصال بالعالم الخارجي.

حاول حازم إقناعه بالسماح له قائلا :

سيدي، اسمح لي لاستجوابه وس...

قاطعه اللواء بإشارة صارمة من يده وقال :

اترك لنا أمر هذا الرجل تماما واذهب إلى عملك لتباشر قضية تاجر المخدرات الأفريقي، هيا.

هب حازم واقفا في انفعال قال في خضوع يخفي ثورة:

تحت أمرك ياسيدي.

غادر مسرعا المكتب ثم توجه نحو مكتبه، كان في أعماقه يشعر أن الخطر مايزال كامنا يتربص به في تحفز كامل، ينتظر الفرصة للإنقضاض عليه لتمزيقه إربا، لكنه لم يستطع إقناع اللواء زكريا بأن الخطر قريب للغاية، إنه يعرفه جيدا، لا يؤمن إلا بالحقائق المجردة، ويري أن المشاعر والأحاسيس مكانها المنزل والعلاقات الغرامية، لهذا لم يستطع البوح بما في داخله حتى لا يواجه سخرية اللواء وصرامته. جلس خلف مكتبه ثم شرع يطرق عليه بقبضته في توتر بالغ، كان كالأسد المحبوس في قفص حديدي صلب يعجز عن الخروج منه بالرغم من قوته الهائلة، فكر في الذهاب إلى ذلك الوغد في زنزانته ضاربا بتحذير اللواء عرض الحائط، لكنه تراجع عن فكرته في اللحظة نفسها، سيبدو في نظر الجميع مجرد مراهق ساذج تتحكم فيه مشاعره، لن تغفر له شجاعته وإخلاصه إذا ما أفسد الأمور، علمته سنواته الخمس وثلاثون أن الأمور يفسدها التسرع والإستعجال، وأن الصبر

والتريث هما أهم صفتين تميزان الرجل الناضج، على الرغم من كل ما بذله لإقناع نفسه إلا أنه ظل على حالته من التوتر والترقب وكأن شيئا خطيرا على وشك الحدوث، و عندما عجز عن دفع توتره انشغل بمطالعة ملف قضية تاجر المخدرات الأفريقي، اقتحم أفكاره في تلك اللحظة وجه خطيبته وحبيبته (رقية) و غاظه أنها لم تقبل اعتذاره حتى هذه اللحظة، يعلم يقينا أنها تحبه ربما بأكثر مما يفعل هو، وهو على يقين من أنه يحبها حبا عظيما، ولا يفسد راحته وفرحته بها سوى تأخرها في عملها إذا اضطرتها الظروف لذلك، كولادة متعسرة أو ولادة قيصرية تحتاج إلى تدخل جراحي، لذلك لم يستطع الإعتراض لنبل مقاصدها، كل ما فعله هو أنه أعطاها صاعق كهربي للدفاع عن نفسها وهو يدعو الله أن لا تضطر لاستخدامه أبدا. زفر في قلق عندما بلغ هذه النقطة، هرب من مشاعره المضطربة إلى استكمال قراءة ملف تاجر المخدرات الأفريقي بتركيز وإمعان ، وكانت هذا عادته دائما عندما يريد الهروب من التفكير في أمر ما، لكنه لم يفلح هذه المرة.

****

استمر حازم في عمله داخل مكتبه حتى الثالثة عصرا، قرأ الملف الخاص بذلك التاجر الأفريقي خلال تلك المدة أكثر من مرة، و لأول مرة في حياته يشعر بهذا الكم الهائل من الملل وهو يتابع قراءة إحدى ملفات القضايا المثيرة، كان في السابق يشعر بقدر كبير من الإثارة و هو يطالع إحدى القضايا المكلف بها بأكثر مما يشعر و هو يشاهد فيلما بوليسيا عالي الحبكة. كادت نفسه تؤزه أزا للذهاب إلى ذلك الشاب المجرم وإجباره على البوح بكل مالديه، لكن التزامه بالتعليمات يمنعه من تجاوز تعليمات رئيسه المباشر، لو كان رجلا آخر لربما تجاوز تعليماته بالفعل، لكن

اللواء زكريا رجل شديد الصارمة فيما يتعلق بالعمل، لا يتردد في معاقبة مرؤسيه إذا ما بدر منهم بادرة تجاهل أو تمرد، حتى أنه لا يرى ابتسامته تلوح في وجهه لأكثر من ثانيتين قبل أن توأد في مهدها، لهذا فهو سيخاطر بمستقبله إذا تجاوز تعليماته المشددة.
تنهد في ضيق قبل أن يغادر مكتبه عائدا إلى منزله بالرغم من أنه لم يكن يشعر بإرهاق، وكان الألم الناتج من جراء إصابة ذراعه قد بات أقل حدة، لكنه مع ذلك شعر بالميل إلى الرقود على فراشه دون أن يفعل شيء. كان يدرك أن رقية غاضبة منه والدليل على ذلك عدم ردها على رسالته أو استجابتها لمكالماته العديدة، فكر في معاودة الإتصال بها لكن كرامته أبت عليه وعناده رفض في إصرار، حاول الهروب من ضيقه عن طريق النوم فعجز، استسلم في النهاية لقلبه فأمسك هاتفه وأجرى اتصالا بها لكنها لم ترد، فضل الإعتقاد بأنها ربما تكون منشغلة بالقيام بعملية توليد على أنها ترفض الرد عليه كنوع من العقاب. وضع الهاتف بجواره على المنضدة و راح يفكر في تهديدات ذلك الشاب له، ماالذي يقصده عندما قال: (وفر جهدك لحماية أناس أغلى عندك من هذه العجوز؟) ربما لا يقصد شيئا محددا، وربما يعي تماما مايقوله!
اعتدل جالسا على فراشه وقد جافاه الملل وحل مكانه القلق والتوجس، لا يعرف من أي طريق يبدأ مادام لم يحصل على معلومات كافية فصار كالأعمى يتخبط في الجدران، ينبغي عليه الإنتظار في صبر حتى يبدأ خبير الإستجواب عمله، لكن إلى ذلك الحين سيبدأ عمله المعتاد، عاد إلى مكتبه مرة أخرى لمعرفة آخر التطورات المتعلقة بقاتل العجوز، استدعى مساعده قائلا له :

هل هناك جديد؟

حتى هذه اللحظة لا يوجد جديد، ولكن رجالنا يبذلون أقصى جهدهم للوصول إليه في أقرب وقت ممكن.

مط حازم شفتيه في حنق قائلا:

هذا لا يكفي أبدا، كل دقيقة تمضي تكون هناك خطورة على أحد ما، ينبغي أن يبذلوا جهدا مضاعفا ظ

هز مساعده رأسه إيجابا وقال :

سنبذل قصارى جهدنا ياسيادة المقدم .

استئذن مساعده بالإنصراف في حين أسند حازم ظهره إلى مقعده وهو يعصر مخه لحل ذلك اللغز العجيب، كيف سينفذ تهديده ومن ستكون الضحية القادمة؟

****

مضى الوقت سريعا وكأن عقرب الساعات دخل في سباق محموم مع عقرب الدقائق، الذي بدا هو الآخر كما لو كان يكافح للحاق بعقرب الثواني في إلحاح. كان ما يزال حازم جالسا في مكتبه يتابع رجاله الذين يبحثون عن قاتل العجوز من خلال أوصافه من جهة، وبحث حقيقة تهديد أشرف البغدادي من جهة أخرى، لهذا منعوا زيارته تحت أي بند حتى العرض على النيابة، لكنه بغتة هب قائما وصاح في فزع :

كيف لم أنتبه إلى هذا؟

أجرى إتصالا بزميله رأفت وهتف كالمحموم:

ذلك الوغد أشرف على علاقة بأحد رجال الشرطة لا محالة.

استقبل رأفت هتاف زميله في دهشة في البداية ثم استوعب ما قاله في سرعة متسائلا:

و كيف عرفت بتلك المعلومة الخطيرة.

هتف حازم :

الأمر بسيط للغاية يارجل، فكيف تأكد من مقتل العجوز بهذه الثقة، وكيف سينفذ تهديده القادم بالرغم من عدم سماحنا له باستقبال أية زيارة لو لم يكن على صلة بأحد رجالنا؟

صاح رأفت وهو يقفز من مكانه كمن لدغته أفعى مجلجلة:

ياإلهي، هذا معناه أن الخطورة مضاعفة يارجل!

سأله حازم في قلق وحذر بالغين :

كيف يا رأفت؟

لأنه سيحصل عن طريق رجل الشرطة هذا على معلومات لا تتوفر لأحد من خارج الجهاز، وستمكنه تلك المعلومات من الوصول إلى ما يريد في أسرع وقت وبأيسر وسيلة.

أردف حازم في يأس :

وهذا معناه أيضا أن الوقت ليس في صالحنا!

عقب رأفت على كلامه قائلا :

بالضبط، ينبغي أن نبحث عن ذلك الخائن قبل أن يكشف أوراقنا كلها.

كاد حازم يجيبه لولا أن جائت رسالة نصية على هاتفه، ألقى نظرة سريعة على مرسلها فخفق قلبه في فرح بالرغم منه عندما طالعه اسم خطيبته، قال حازم في لهفة:

حسنا يارأفت سأتابع معك آخر التطورات أولا بأول، لكني سأضطر لتركك للرد على الهاتف، مع السلامة.

أغلق هاتفه ثم دلف إلى صندوق الواتس ليطلع على فحوى الرسالة، لكنه لم يكد يطلع عليها حتى انتفض جسده في فزع وذعر هائلين ، فما كانت تحتويه الرسالة كفيلة بأن تقتله من شدة الرعب، والفزع.

****

أجرت رقية آخر عملية ولادة قيصرية في يوم شاق ومرهق للغاية. لم تكد تنتهي وتطمئن على حالة الوليد حتى خلعت قفازيها وغسلت يديها جيدا، ثم هرعت إلى مكتبها لتلتقط أنفاسها وترتاح على مقعدها الوثير قليلا دون أن تخلع معطفها الأبيض، أشارت الساعة إلى الثامنة والنصف مساءا عندما أغمضت عينيها في إرهاق وراحت تفكر: لو علم خطيبها بتأخرهاحتى هذا الوقت لانتابه غضب عنيف، لم تكن تكره غضبه وحدته في الواقع فهي تبين مدى حبه لها و حدبه عليها، و تدرك كم يخشى عليها من الأخطار المحدقة والتي ربما لا تنتبه لها لسذاجتها و برائتها، فالليل دائما يعني الخطر والخوف والغموض، لكنها لا تستطيع تجاهل من يطلب مساعدة طارئة، فقد يكون في عدم استجابتها خطر كبير على حياة الأم والجنين معا، تعلم أنه يدرك جيدا حجم مسئولياتها بالرغم من إبداء رفضه الدائم لبقائها خارج البيت حتى وقت متأخر، و أن خوفه عليها منشؤه الغيرة والحب و الإشفاق، ولهذا تحبه، بل تعشقه. تطلعت إلى قائمة الهاتف

الخاصة بمكالمات لم يرد عليها، فوجدت أنه حاول الإتصال بها عدة مرات دون أن تجيبه، و كان سبب عدم ردها على مكالماته الملحة هو انشغالها بعمليات الولادة التي لا تنقطع من جهة، و غضبها منه لعدم حضوره العشاء الذي أعدته بنفسها، و تجاهلها أحيانا بسبب عمله. إنها تعي كم المجهود الذي يبذله في عمله الخطير، وأنه لن يتأخر أبدا عن الحضور إلا لأسباب قهرية، لكنه كان ينبغي أن يعتذر، فهي تبغض التجاهل، ولذا عاملته بالمقولة ترددها دائما :

(لا يفل التجاهل إلا التجاهل) عاملته بالمثل على أمل أن يبدي نحوها اهتماما يعادل ذلك الذي يبديه دائما تجاه عمله، أو حتى يقترب منه، لم يكن قسوتها عليه نابعة من كره أو حنق، وإنما كان منبعه الحب والإحترام، والدلال، تعرف قيمتها عنده، وتعترف فيما بينها أنها تحبه حد الهيام على الرغم من عدم اعترافها له بذلك، حياءها يمنعها من الإعتراف له بذلك قبل الزواج، و هو أيضا لم يخبرها بحبه غير مرات قليلة، لكن موعد الزواج اقترب كثيرا وأمامهما حياة طويلة لقول كل كلام الحب والعشق والهيام، راحت تفكر في حياتهما المقبلة، كيف سيتشاركانها؟ وكيف ستتعامل مع حدته وغضبه؟ لكن ذلك لم يشكل لها مصدر قلق فهي تعلم معدنه الحقيقي و حبه المثالي. بغتة طرق الباب فانتزعها من أفكارها، اعتدلت قائلة بصوت هادئ بعد أن تنحنحت عدة مرات:

ادخلي يا نسرين.

دلفت نسرين يبدو على وجهها الإنفعال و هي تقول :

هناك ثلاثة رجال يريدون مقابلتك الآن.

ارتفع حاجبا رقية من الدهشة ثم رددت في استغراب:

ثلاثة رجال! الآن!

لم تكد تنطق عبارتها حتى دفع أحد الرجال الثلاثة الباب ثم دلف وهو يقول في نبرة ساخرة :

كيف حالك يادكتورة رقية، هل انتهيت من عملك أم ننتظر حتى تنتهي ورديتك؟ فأنا أعلم كم الإحساس بالمسؤولية التي تشعرون بها أيها الأطباء نحو مرضاكم.

تطلعت رقية إلى ابتسامته القاسية التي تزين وجهه الشبيه بالذئب ثم قالت بصوت مبحوح :

من أنتم وماذا تريدون؟

دفع الآخران نسرين بحدة إلى الداخل، في حين أردف الأول :

اسمي(سيد)، كل ما هنالك أن زوجتي تعاني آلام الطلق الآن ولا أستطيع إحضارها إلى هنا، فأنا أستميحك المجيء معي لتوليدها في المنزل قبل أن تموت هناك.

كان من المستحيل أن تقتنع رقية أن تلك الوجوه الثلاثة الذين يبعث مرآها الرعب في النفوس، وتلك النبرة القاسية التي تظهر بوضوح في صوته ونظراته، هي لرجل تعاني زوجته آلام الطلق، بل وتكاد تموت أيضا على حد وصفه، فكرت في الصراخ لكن لم يكن صوتها سيبلغ رجلي الأمن في الأسفل، فكرت في الإتصال من خلال هاتفها لكنهم سيلاحظون محاولتها بوضوح، أخفت هاتفها في جيب معطفها الأبيض الذي ترتديه في حركة خفية دون أن يلاحظوا ثم سألتهم في خوف :

كيف دخلتم إلى هنا دون أن يبلغني رجلي الأمن في الأسفل؟

تطلع الرجال إلى بعضهم في استخفاف واضح ثم قال نفس الرجل في تهكم مخيف:

أنت تعلمين عدم جدوى أفراد الأمن أمام محترفين مثلنا.

رددتْ في رعب كادت تفقد بسببه الوعي :

محترفين! من أنتم؟

اقترب منها أحدهم قائلا في صرامة :

هيا، تعالي معنا دون اعتراض.

وجدت نفسها تصيح معترضة رغم خوفها البالغ:

لن آتي معكم حتى أعرف من أنتم وماذا تريدون مني.

حاولت نسرين الفرار لكن أحد الرجال الثلاثة قبض على شعرها وجذبها منه في قسوة، صرخت نسرين في ألم و فزع هائلين جعل جسد رقية ينتفض فرقا ورعبا، هتف أحدهم بقسوة وشراسة:

هيا تعالي معنا بدلا من أن نستعمل معكِ العنف والقسوة.

تسمرت رقية في مكانها من أثر الذعر الذي تخلل مسامها لكن حنجرتها تحررت وراحت تصرخ باسم خطيبها في لوعة، جذبها أحدهم من ذراعيها بقسوة فاضطرت لاتباعه مرغمة، جذب الثاني نسرين من يدها فاستسلمت له كنعجة مذعورة، حاولت أن تصرخ مستنجدة بأفراد الأمن لكن أحدهم عاجلها بلطمة قاسية انفجرت في وجهها فسقطت فاقدة الوعي على الفور، تركها الرجل تسقط أرضا في لا مبالاة، تلك القسوة الرهيبة التي تعامل بها ذلك الرجل مع نسرين جعل رقية تكتسب جرأة مفاجئة خوفا على مصيرها بين يدي هؤلاء الذئاب الثلاثة، الذين يسوقونها إلى مكان مجهول

لا تدري كيف ستكون فيه نهايتها، ويالیتها تكون سريعة! هذا ما حدثت به نفسها وهي تجذب ذراعيها من بين أصابع الرجل الغليظة بغتة ثم تعدو بأقصى سرعتها وهي تصرخ بأعلى صوتها لعله يصل إلى فردي الأمن فينقذاها من براثنهم، فوجئ الرجال الثلاثة بانفلاتها من بين أيديهم فانفصل (عرفان) عن زميليه و عدا ناحية السلم في الجهة المقابلة حتى يقطع عليها طريق الهبوط، أدركت رقية مخططه الخبيث فتمزق قلبها هلعا، لم يكن أمامها حينئذ سوى فرصة الفرار نحو السطح، ولم تضع ثانية فقفزت على درجات السلم إلى أعلى و قلبها ينتفض بقوة و هي ترى بعين خيالها نهايتها القريبة. هرعوا خلفها إلى سطح المبنى الذي يغلقه باب حديدي، خفق قلبها في فرح عندما رأت الباب مفتوحا على مصراعيه، دلفت إلى السطح ثم أغلقت الباب خلفها بالمزلاج، لهثت وهي تبحث بعينيها في لهفة عن مخرج، بكت بحرقة عندما أدركت استحالة الخروج من هذا المأزق العسير، أسرعت نحو الترابزين تتطلع منه إلى الشارع من ارتفاع خمسة طوابق، شهقت ثم تراجعت إلى الخلف هلعة مذعورة، في تلك اللحظة بدأ الرجال الثلاثة دفع الباب الحديدي بأقدامهم وأكتافهم دون جدوى، و في غمرة يأسها أخرجت هاتفها تستنجد بحبيب عمرها و تتضرع إلى الله أن ينجدها، حاولت الإتصال به لكنها فوجئت بانتهاء رصيدها فصرخت في حسرة، أرسلت رسالة عبر الواتس تخبره فيها بأصابع مرتجفة (حازم، هناك ثلاثة رجال قساة الوجوه اقتحموا المستشفى وطاردوني عبر طرقاتها، ثم ألجأوني إلى السطح دون أن أجد مخرج حتى هذه اللحظة، وهم يحاولون الآن اقتحام الباب المؤدي إلى السطح، حازم إن متُ وهذا ما أظن حدوثه لا تنساني أبدا)

كانت تلك هي الرسالة التي اطلع عليها حازم بعينين ذاهلتين مذعورتين و قلب فزع، لقد نفذ ذلك الحقير تهديده بالرغم من وضعه في الحبس الإنفرادي، لكنه بالرغم من ذعره لم يُضع لحظة واحدة في المرارة والحزن، قفز عبر درجات السلم هابطا إلى أسفل ثم استقل سيارته و انطلق بها إلى المستشفى التي تعمل بها خطيبته، كان ينطلق بكل سرعته متجاهلا كل المخاطر التي قد يتعرض لها هو أو أحد المارة، بكى قلبه و هو يخبره في أسى أنه لن يلحق بها مهما حاول، لكنه صرخ في غضب واعتراض هائلين ثم اعتصر دواسة الوقود رافضا ما يخبره به قلبه، لن يستطيع استكمال مشوار حياته بدونها، سيموت كمدا لو رحلت، كان أكثر ما يخشاه أن تقع في أيدي هؤلاء الذئاب الذين سيفترسونها دون رحمة، طرد الفكرة البشعة من مخيلته بكل ما يملك من إرادة، ثم راح يطلق آلات تنبيه سيارته في حدة كي يمنع السيارات الأخرى من أن يعرقلوا سيارته التي تسير كسهم مارق، لكن سيارة كبيرة اعترضت طريقه بغتة عندما حاول سائقها قطع الطريق الرئيسي والمرور من طريق فرعي اختصارا للوقت، بذعر هائل حاول حازم تفاديها فأدار مقود السيارة ناحية اليسار، نجح في تفادي السيارة بأعجوبة لكن تلك الحركة العنيف الحادة مع السرعة القصوى التي ينطلق بها جعلت سيارته تنقلب على جانبها في عنف ثم زحفت عدة أمتار و هي تطلق شرارات عنيفة، ساد صمت قبوري داخل السيارة المقلوبة على جانبها للحظات ثم بغتة تحركت يد معروقة محاولة فك حزام الأمان بصعوبة، لم يكن يعلم في تلك اللحظة التي يصارع فيها الموت أن الرجال الثلاثة صوبوا مسدساتهم على الباب الحديدي ثم أطلقوا عليه رصاصاتهم بغزارة باعثة صوتا هائلا مدويا، فاستجاب الباب تحت لسعات الرصاص المؤلمة وانفتح على مصراعيه أمامهم، و

عندها سقط آخر حصن لدى رقية أمام ثلاثة من الذئاب التي لا تعرف قوبهم طريق الرحمة، أو أن أجسادهم لم تحتوي على قلوب قط.

****

اخترق الرائد (كريم بكري) طريقه بكل سهولة داخل قسم الشرطة حتى وصل إلى الزنزانة التي يقبع فيها أشرف البغدادي بمفرده، تطلع إليه الأخير في سخرية واثقة ثم قام من رقدته وهو يسأله في لا مبالاة:

لماذا تأخرت كل هذا الوقت يا كريم باشا؟

أخرج مفتاح الزنزانة من جيبه مجيبا في تهكم:

هل تعلم أني كشفتُ غطائي بمحاولتي إخراجك من سجنك الإنفرادي هذا، و لن تمضي ساعة حتى يكون كل رجل شرطة لديه أمر بالقبض علي لتورطي مع عصابة خطيرة وتهريب أحد رجالها، لذا بدلا من أن تلومني على تأخيري ينبغي أن تشكرني لإنقاذك.

خرج أشرف من الزنزانه في تلك اللحظة قائلا في زهو:

لولا أنني شديد الأهمية عندهم ما اضطروا لكشف غطائك لجهاز الأمن المصري.

لكني أظل الأكثر أهمية لديهم يا عزيزي أشرف.

جاوبه أشرف داريا حنقه وغيرته:

أنت مجرد وغد محظوظ.

أطلق كريم ضحكة ساخرة عالية ثم قال:

وما الغريب في ذلك، فنحن مجرد منظمة تضم عددا كبير من الأوغاد الذين لا يتورعون عن ارتكاب أي فعل حتى لو كان ضد مصلحة الوطن نفسه.

ردد أشرف ساخرا :

الوطن! ياله من اسم مخادع يخفي ورائه ظلما هائلا في توزيع الثروة بين من يسكنون على أرضه، و يتعامل مع المواطنين وكأنهم ينتمون إلى فئتين مختلفتين تماما، كم عانيتُ من تجاهله المستمر لي.

قال عبارته الأخيرة في مرارة، بدت ابتسامة ساخرة على وجه كريم و هو يخرج هاتفه قائلا من خلاله في اقتضاب :

ادخل الرجل يا هاني بسرعة.

لم تمض لحظات حتى كان يقف أمامهما رجل قريب الشبه من أشرف البغدادي في الحجم والطول ويرتدي قناعا متقنا لوجه أشرف .

تأمله أشرف للحظات في إعجاب ثم هتف :

في كل يوم يزداد إعجابي بتلك المنظمة التي لا تتخلى عن رجالها أبدا، و تحسب لكل شيء حتى من قبل أن يحدث.

لم يجبه كريم وهو يلتفت إلى هاني قائلا في صرامة:

هيا أيها الأمين، ادخل هذا الرجل إلى الزنزانة وأغلقها عليه جيدا، وإياك أن تحدث أحدا عما حدث حتى لو هددوك بقطع رقبتك.

ثم مال ناحيته قائلا في لهجمة جمدت دمائه:

أنت تعلم مصير من يخالف أوامر القادة هناك، أليس كذلك.

ارتعش جسد أمين الشرطة و هو يقول متلعثما :

لا تقلق ياكريم باشا سيكون كل شيء على مايرام.

حدجه الرائد كريم بنظرة صارمة من عينيه ثم قال :

لا يكون القلق من نصيبي عادة يا رجل.

قال عبارته ثم أخرج من جيب سترته قناعا لوجه آخر سلمه لأشرف الذي ارتداه في مهارة ثم ذهب إلى الحمام ليرى نتيجة عمله في المرآة، في حين أغلق هاني باب الزنزانة على الرجل المتنكر في هيئة أشرف ثم تبع الرائد كريم إلى الخارج في انصياع كامل، خرج أشرف من الحمام في تلك اللحظة وقال:

هيا بنا لنشهد اللحظات القادمة التي ستكون أكثر إثارة من مبارة المنتخب مع إيطاليا في كأس القارات.

استقلا سيارة الرائد الذي انطلق بها على الفور، تطلع أشرف إلى ساعته ثم قال في ارتياح :

في تلك اللحظة يا عزيزي كريم تكون فتاة ذلك الرائد المقدام في حوزتنا، وأود أن أشهد بنفسي رجالي و هم يتبادلون مع تلك المرأة لحظات خيالية من الغزل العفيف والرومانسية الرقيقة.

أطلق كريم ضحكة مقتضبة ثم قال في استغراب :

أما يكفيك يارجل أن تقتلها لتلقن ذلك السبع درسا يهدم كيانه!

أطلق أشرف ضحكة قاسية قائلا في تلذذ:

كلا لا يكفيني ولا يكفي رجالي، فهذه اللحظات قلما تتكرر في العمر كله، وأنا حريص على أن أشهدها بنفسي، بل و أشاركهم فيها أيضا.

أطلقا قهقهات ذئبية عالية والسيارة تنطلق نحو الوكر الرئيسي في سرعة، انطلق رنين هاتف أشرف فطالعه بنظرة خاطفة ثم قال متهكما :

يبدو أن الحمامة الرقيقة قد وقعت في مصيدة الصقور يا عزيزي وآن أوان موسم التزاوج.

أطلق كريم ضحكة مجلجلة لطرافة عبارته، استقبل أشرف المكالمة قائلا في تهكم لاذع :

هل نتفتم ريش الحمامة أم انتظرتم قائدكم ليبدأ أولا كما يفعل المحترمون دائما .

استمع إلى محدثه ثم صرخ غاضبا :

ماذا! عليكم اللعنة، ألا تستطيعون تنفيذ عملية بالغة السهولة مثل هذه دون وقوع أخطاء؟

سأله كريم في انفعال :

ماذا هناك يا أشرف؟

لم يرد الأخير على سؤاله، اكتفى بالتمتمة بكلمات ساخطة غاضبة مزقت هدوءه الأسطوري للأبد.

****

حاول حازم الخروج من السيارة المقلوبة بكل ما يملك من قوة، لكنه عجز عن الخروج من السيارة بعد ذلك الإصطدام القوي الذي

أثر على أعصابه وأصابه بدوار حاد، كان إحساس المرارة يغرق روحه في بحر من اليأس، تتقاذفه أمواجه في عنف لتصدمه على شاطئ الواقع الصخري في قسوة بالغة، لم يشعر في حياته كلها بكل تلك المشاعر التي اجتمعت على نحو لم يحدث من قبل، المرارة و الحزن و اليأس و الحنق والسخط و الغضب و الذهول و الحيرة و الإستسلام، كتلة من المشاعر و الأحاسيس امتزجت على نحو يستحيل حدوثه إلا في موقف مماثل، فتركته جسدا بلا روح، لا يعمل فيه عضو سوى عينيه التي قامت بدورها على أتم وجه يخالف سير باقي الأعضاء، ذرفت عيناه الدموع بغزارة كأنها فتحت قناتها الدمعية كلها دفعة واحدة، حتى لسانه لم ينطق بكلمة، عجز عن ينطق اسمها، خجله البالغ جعله يكتم اسمها في حلقه، شد ما آلمه هو عجزه عن حمايتها وهو في هذا الوضع المزري، فضل أن يُقتل ألف مرة على لحظة من شعوره بالعجز المهين، لكنه لم يستطع كتم صرخته طويلا، صرخ باسمها في لوعة تكفي ليموت العالم كمدا و حزنا، سمع حينها خطوات تعدو تجاهه وأصحابها يصرخون فزعين:

إنه ما يزال على قيد الحياة بالرغم من انقلاب السيارة الخطير.

مد أحدهم إليه يده فتشبث بها بكل قوته، امتدت يد ثان و ثالث و سحبوا جسده إلى أعلى في رفق، حاول الوقوف في بالرغم من الدوار الذي يشعر به مع وقوفه، تجاهل أحاسيسه المؤلمة و هو يجر رجليه ناحية سيارة توقف صاحبها ينظر إلى الحادث في فضول، قال له حازم في رجاء وضراعة بالغين :

أرجوك صلني إلى مستشفى الأمل في مدينة نصر، أرجوك بسرعة.

تطلع الرجل إلى وجهه الذي ينزف نتيجة جرح غائر في جبهته، وسترته الممزقة عند الصدر ثم سأله في استغراب:

ولماذا تلك المستشفى البعيدة بالذات، من الممكن أن أقلك إلى مستشفى قريب لإسعافك.

فتح حازم باب السيارة ثم ألقى جسده في المقعد المجاور و هو يقول في ضعف:

ليس لإسعافي بل لإنقاذ خطيبتي قبل أن يخطفها رجال العصابة.

ارتفعت حاجبا الرجل في دهشة أمام هذه الحقائق المفزعة، فهتف حازم محتدا :

هيا يارجل بسرعة، أرجوك.

انطلق الرجل بسيارته بسرعة و قلبه يخفق في عنف، لم يتخيل قط أن تصبح مصير إنسانة بين يديه، لكنه لم يكن يعلم أن مصيرها لم يعد بين يديه ولا بين يدي مخلوق آخر .

****

انطلقت الرصاصات الغزيرة تقتحم الباب الحديدي ثم تعبر من خلاله مخلفة ثقوبا كثيرة إثر عبورها إلى الجانب الآخر، انفصلت ضلفتي الباب عن مفصلاته فسقط مطلقا صوتا عنيفا، شهقت رقية عندما وجدت نفسها وجها لوجه أمام ثلاثة من الضباع تشتهي دمها، والأبشع من ذلك، جسدها، دلت نظراتهم إليها على تلك النية القذرة، تراجعت إلى الخلف في حذر مشوب بالفزع، التفتت ورائها إلى أسفل فسقط قلبها في عنف، حدجها الرجال الثلاثة في قسوة ثم قال أحدهم متهكما :

لا يوجد مفر يا غزالتي عندما يحاصركِ ثلاثة من الأسود الجائعة.

سقطت دموع القهر من عينيها في صمت، لكن عنادها وحزمها، إبائها وصلابتها، جعلوها ترفع رأسها في اعتزاز واعتداد، كان مشهد دموعها السائلة مع رأسها المنتصب يضفي شعورا بالإستغراب والحيرة، دفع ذلك المشهد المتناقض أحدهم ليقول في سخرية :

تعجبني شخصيتك الصلبة للغاية أيتها الطبيبة، لا شك أن اعتدادك بنفسك سيضفي لنا متعة لا تقاوم.

حدجته رقية بنظرة صارمة نارية ثم هتفت بصوت حمل كل حزم وإباء :

لا تطمع في ما ليس لك أيها الجبان، فجسدي لن يلمسه أحد منكم ما دمتُ حية.

تبادل الثلاثة فيما بينهم نظرات ساخرة واثقة ثم تقدم منها أحدهم في بطأ و هو يقول :

هل ستلقين نفسك من هذا الإرتفاع، حسنا افعلي، دعيني أشاهد هذا المنظر المثير عندما يسقط جسدك من هذا الإرتفاع ثم يصطدم بالأرض في عنف فيتمزق جسدك وتتفرق أضلاعه عضوا عضوا، هيا.

أرسلت رسالة قصيرة مقتضبة عبر هاتفها، ضحك الثلاثة و أقربهم إليها يقول ساخرا :

هل ستتصلين بالسوبر مان لإنقاذك؟ فأنا لا أعرف أحد يستطيع فعل ذلك وأنا على مسافة مترين فقط منك غيره.

صعدت رقية على حافة الشرفة بلا تردد، لم يكن أمامها سوى خيارين، إما السقوط إلى أسفل فتموت، أو السقوط بين هؤلاء

الذئاب فتخسر شرفها إلى الأبد، ولقد اختارت الخيار الأول دون تردد، ألقت هاتفها و هي تنظر إليه حتى ارتطم بالأرض في عنف ثم تبعثرت محتوياته في كل مكان، شعرت بجسدها ينكمش في رعب و هي تتخيل أن هذا ما سيحدث لجسدها عند ارتطامه، ابتلعت ريقها في صعوبة و قد اقتحمهما خوف هائل فشلّ جسدها و أوقف تفكيرها، مط الرجل شفتيه في استنكار قائلا:

ألم تتخذي خيارك بعد يا غزالتي.

جعلتها تلك العبارة تعاود عنادها وصلابتها فصرخت :

لقد اتخذت خياري بالفعل أيها الملاعين.

أنهت عبارتها ثم اتخذت القرار الأخطر في حياتها كلها منذ مولودها و حتى تلم اللحظة، قرار إنهاء حياتها بكامل إرادتها و قواها العقلية هربا من الشيء الأشد بشاعة على الإطلاق، و دون لحظة إضافية من التردد، ألقت بنفسها من الطابق الخامس دون أن تطلق صرخة واحدة، وصل صوت اصطدام جسدها بالأرض في عنف إلى مسامع الرجال الثلاثة، فهرعوا يلقون نظرات ذاهلة على الجسد الملقى في مشهد لا يتصور أبشع منه، تجمدوا في أماكنهم للحظات ثم أخرج أحدهم هاتفه ليجري اتصالا بأشرف البغدادي قائلا في اقتضاب :

لقد انتحرت تلك المرأة يا زعيم.

وكانت هذه العبارة هي ما أثارت غضب أشرف بشدة.

****

صاح حازم بالرجل لينطلق بأقصى سرعته و قلبه ينتفض بين جنباته في ذعر، راح يتخيل حبيبته بين هؤلاء الأوغاد يعبثون بها

كيفما يشائون، سيدفع عمره كله عن طيب خاطر مقابل أن تبتعد عن الخطر وأن تعود إلى بيتها سليمة معافية، لكن هل سيسمع القدر لهمساته المتضرعة؟ هل سينقذها من بين أيدي هؤلاء الأنجاس؟ أم هل...، لم يستطع إستكمال سؤاله، كان قد اقترب من المكان كثيرا فصرخ في حدة:

اضغط يارجل دواسة البنزين و لا تخشى من ملاحقة القانون، هناك من ستخسر ما هو أكثر من حياتها إذا لم نصل إليها في الوقت المناسب.

استجاب الرجل لتضرعات الرجل المصاب فضغط دواسة الوقود أكثر، لكن السرعة التي كان يسير بها لم تسعفه ليتفادي الإصطدام بسيارة تأتي مسرعة في الإتجاه المقابل، اصطدم بها في عنف حتى إن زجاج السيارة الأمامي تحطم ورشقت في وجهه قطع صغيرة متطايرة قبل أن يفقد وعيه على الفور، نجحت بعض قطع الزجاج الصغيرة في الوصول إلى وجه حازم الذي كان الإصطدام قد أصابه بارتجاج عنيف ضاعف من دواره، جعله ذلك الإرتجاج لا يستطيع تمييز ما أمامه إلا بصعوبة، استنفر إرادته للخروج من السيارة محاولا الوصول إلى حبيبته، اصطك مسامعه في تلك اللحظة أصوات صافرات إنذار سيارات الشرطة والإسعاف، تسائل في فزع : لمن أتت سيارات الإسعاف والشرطة ياترى؟ حاول مجددا الخروج من السيارة، نجح بالكاد، لم يستطع المشي، زحف على يديه و ركبتيه، هناك جسد مغطى لا يتبين ملامحه تحلق حوله الناس في دائرة كبيرة، فرقت الشرطة التجمهر في صرامة لتسمح لفريق الإسعاف بالوصول للجسد المسجى، عاود حازم الزحف و هو يكاد يسقط من فرط الإعياء والدماء تسيل من مناطق متفرقة في جسده و وجهه، لم يعد يقوى على الإستمرار

فترك جسده يسقط، قاوم رغبة شديدة في إغماض عينيه والإستسلام للأبد، تبين بصعوبة من خلال غشاوة كثيفة حطت على عينيه جسد ملتف بملاءة بيضاء تلوثت بالدماء و المسعفون يضعونه على المحفة، ثم حملوه و وضعوه في سيارة الإسعاف التي انطلقت به على الفور وهي تطلق بوقها المميز، لم يعرف ماهية صاحب الجسد، لكن قلبه أخبره أن من حملوه ليس سوى شخص واحد فقط، ثم سقط فاقد الوعي.

****

انتهت إجراءات الدفن وسط حزن عارم أصاب الجميع، بكا والديها وصديقاتها في حرقة كما لم يفعلوا من قبل، حتى أن بعض الرجال من أقاربها بكوا أيضا دون حرج، أصاب الجميع حزنا امتزج بالسخط والغضب والإنفعال، لكن لم ينتج عن هذه المشاعر سوى صمت فاق صمت القبور مهابة، لم يقطعه سوي البكاء والتشنجات، جاهد اللواء زكريا في منع دموعه من الإنهمار، كان يشعر بغضب مسح كل شعور آخر داخله حينذاك، حتى شعوره بالحزن لما أصاب تلك المسكينة كان يخفت أمام غضبه الرهيب، حيثُ كان يشعر أنه مسئول مسئولية مباشرة لما أصابها، ربما لو ترك حازم يستخلص المعلومات من ذاك المجرم لما حدثت تلك المصيبة العظمى التي فاقت كل بلية، زاد من غضبه هروب ذلك الحقير من سجنه بمساعدة أحد ضباط الشرطة الخائن فاقد الضمير، اقتحمه حزن عميق وهو يفكر في الرائد حازم الفاقد الوعي في تلك اللحظة، لقد حرموه من حبيبته، وحرموه أيضا من تلقي عزائها. كان قد سقط فاقد الوعي أمام المستشفى بعد أن أصيب في وجهه و كتفه. لأول مرة في حياته يتخلله الشعور بالحرج، إنه لا يدري كيف سيواجهه عندما يستفيق من غيبوبه؟

أزاح مشاعره جانبا و هو يتلقى واجب العزاء وسط أفراد أسرتها.
انتهى واجب العزاء وابتدأ واجب آخر أشد إلزاما و ثقلا، البحث عن ذلك الإرهابي أشرف البغدادي ومعاقبته بأشد عقوبة، الإعدام.
أجرى إتصالا بالعميد ياسر و قال في صرامة شديدة :

عميد ياسر، أريد كل ما يتعلق بقضية أشرف البغدادي على مكتبي في الصباح الباكر.

تحت أمرك ياسيادة اللواء.

أردف اللواء :

وأريد أيضا نصف رجالنا للبحث عنه في كل مكان داخل القاهرة وخارجها منذ هذه اللحظة، مفهوم.

مفهوم يا سيادة اللواء.

أنهى اتصاله شاعرا أن الساعات القادمة لن تحمل خيرا قط، وأن ردة فعل (حازم) عندما يستفيق ستكون كإعصار مدمر.

****

مضت لحظات من الصمت بعد أن فتح (حازم) عينيه، تطلع إلى سقف الغرفة في هدوء مشوب بالحيرة، حيرة مؤقتة انزاحت بسرعة ليحل مكانها قلق بالغ، لكن ذلك القلق انزاح أيضا في سرعة ليستولي على مكانه الفزع، كانت ذاكرته قد استفاقت بغتة بعد أن صدمتها تلك الذكرى العنيفة، ذلك الجسد المسجى الذي كان يحمله رجلي الإسعاف على المحفة ثم انطلقوا به على الفور.
ارتعدت فرائصه عندما تذكر تفاصيل ذلك الجسد، كان جسد امرأة بالرغم من الملائة التي غطتها من رأسها وحتى قدميها، لم يكن حينها عقله المشتت المكدود يستطيع التركيز في تفاصيل دقيقة،

لكنه الآن يستطيع ذلك بسهولة. هب جالسا على فراشه لاهثا في انفعال، لن يستطيع الجزم بما توصل إليه حتى يتأكد أولا، بحث عن هاتفه حتى وجده، حاول الإتصال بخطيبته لكن هاتفها كان مقفل فأجرى اتصالا بصديقه رأفت، مضت لحظات بدت له أشبه بالدهر ثم أتاه صوت صديقه في نبرة جمعت بين التردد و الخوف والتلعثم :

حازم... حمدلله على سلامتك، كيف.. كيف حالك الآن؟

أثار قلقه تلك النبرة المترددة، سأله في توجس وحذر:

رأفت، هل تعرف أخبارا عن(رقية) فأنا أحاول الإتصال بها لكن هاتفها مغلق.

مضت لحظات أخرى من الصمت استفزته فصاح :

رأفت، لماذا لا ترد ؟

تلعثم صديقه و هو يقول :

أنا هنا ولكن...

بتر عبارته بغتة فقال حازم في نفاذ صبر :

ماذا هناك يا رأفت، أخبرني يا رجل بالله عليك؟

صمت رأفت لوهلة ثم اتخذ قراره قائلا في سرعة وكأنه يلقي حملا ثقيلا ناء به :

البقاء لله يا حازم، ماتت شهيدة، والشهداء عند ربهم يرزقون .

صمت حازم لبرهة ثم قال بصوت مهزوم حزين كأنه ذبح بسكين وأريقت دمائه :

كيف ماتت، هل فعل بها هؤلاء الكلاب...

قاطعه رأفت في حزم :

كلا، رقية أثبتت أنها تستحق كل الإحترام والتبجيل بالفعل، لم تتركهم يقتربون منها قيد أنملة، فألقت بنفسها من سطح المستشفى دون تردد.

ترك حازم الهاتف يسقط من يده، ظل للحظات لا يصدق ما سمع، عاد بذاكرته إلى تلك اللحظة التي تطلع بها من بعيد إلى الجسد المسجى المحمول فوق محفة، انهمرت دموع المرارة من عينيه مدرارا، تمنى من أعماقه لو لمس جسدها قبل أن تذهب بلا عودة، ود لو ودعها قبل مثواها الأخير، لكن لم ينتهي الوقت بعد، سيذهب إليها ليودعها، ليخبرها بحبه ومرارته وعذابه، ليعدها بانتقامه العظيم. التقط هاتفه مرة أخرى قائلا لصديقه في حزن و مرارة :

سأذهب لأودعها قبل أن تدفن ولأتلقى واجب العزاء أيضا.

تردد رأفت لحظات ثم قال في خفوت و حذر :

لقد... لقد.. دفناها ليلة أمس .

لا أحد في هذا الكون يستطيع وصف مرارته وحزنه وألمه وغضبه وحنقه واستيائه. حتى توديعها قبل أن تذهب لمثواها الأخير لم يعد ممكنا، لقد انتزع منه هؤلاء الأوغاد أغلى ما يملك، وأثمن ما يحوز، وأعظم ما يحتفظ به، أخذوا منه حبيبته، وبقسوة هائلة. قال في استسلام ممزوج بالمرارة :

سأذهب إلى قبرها لأودعها.

سأله صديقه في حذر :

هل أذهب معك لأرافقك.

كلا يا صديقي، لابد أن أذهب بمفردي، فأنا أحتاج لأخلو بها وحدي .

****

وقف حازم أمام قبرها يبكي في صمت، صمت مهيب اشترك مع مهابة الموقف ليصنع لوحة تستحق أن تسمى (لوحة الموت)، ولا يقطع ذلك الصمت سوى تشنجه ببكاء متقطع، جثا على ركبتيه قائلا في حزن بالغ عظيم :

لم أستطع يا أحب مخلوق إلى قلبي حمايتك كما ينبغي، بل كنتُ أنا السبب في موتك البشع، لولاي ما كنتِ ترقدين الآن في هذا المكان المظلم الضيق الرطب، لولاي ما عانيتِ أشد المعاناة وأنت تختارين سبيل الموت على سبيل الحياة، فضلتي موت الجسد على موت الروح والكرامة، لم أكن أنا ذلك الرجل الذي تمنيتيه يوما، عجزتُ أن أكون ذلك الرجل الذي تعيشين في ظله في أمان دائم، كنتُ دائم العراك معك لأتفه الأسباب، وكنتُ منغمسا دائما في عملي دونك، لم أهتم بك كما تستحقين، كنتِ تتألمين في صمت، وإذا غضبتِ مني امتنعتي عن الحديث معي دون أن تبوحين بما في صدرك، لم أحاول فهم شخصيتك النبيلة، كنت تقاسين في عملك من أجل الآخرين دون أن تشتكي لحظة واحدة، ياليتني كنتُ مكانك ولم تصابي بشوكة، لكنه القدر الذي اختارك وتركني بالرغم من عملي المليء بالأخطار، لم أستحق حبك يوما ولن أستحق، لقد اطلعت على رسالتك الأخيرة التي سألتيني فيها إذا كنت أحبك بصدق؟ لا أعرف صدقيني، إذا كنتُ أحببتك ما تركتك فريسة لهؤلاء الكلاب حتى ألجأوك لإلقاء نفسك كي تحفظي شرفك وعفتك، ما كنت سببتُ لك المعاناة طوال فترة خطوبتنا، كنتِ

تستحقين من هو خير مني، لكني لا أعرف حكمة القدر وأساليبه، لن أستطيع أن أجيب على هذا السؤال حتى أنتقم ممن تسبب في إدخالك هذه الحفرة في مقتبل عمرك وذروة شبابك، إذا نجحتُ في تلك المهمة فحينها فقط أظن أنني أستحق حبك، لكن حتى ذلك الحين، لا أستحق قطرة واحدة من حبك العظيم.

قام واقفا وهو يمسح عينيه بأصابعه التي ابتلت بدموعه الغزيرة، راح يشعر أن تلك الدموع التي تنسكب من عينيه التي لم تتعود أن تفتح مآقيها، ماهي إلا دموع التماسيح، مجرد دموع لن تعيدها ولن تنتقم من أعدائها، دموع العجز والضعف والمهانة، كفكف عينيه، لكن قلبه لم يكف عن الغضب قط، ونفسه لم تكف عن السعي للإنتقام بقسوة وضراوة هائلين.

عاد إلى سيارته ثم انطلق بها بعيدا وقد وقر في نفسه ضرورة تغيير نهج حياته للأبد، سيغير كل القواعد، كل العادات، جميع أساليبه، وطرق تفكيره، فهؤلاء القوم لا يصلح معهم رجل تقليدي، لا يصلح معهم سوي رجل لا يبغي من وراء حياته سوى الإنتقام.

****

تردد حازم كثيرا وهو في طريقه لمقابلة أسرة رقية لتعزيتهم، بالرغم من قسوة تلك اللحظة، إلا أنه لم يكن بإمكانه عدم تقديم واجب العزاء لأسرة حبيبته الراحلة. ما إن رأته والدة رقية حتى بكت بمرارة وحسرة، احتضنها ثم ربت على كتفها في حزن عميق، كان يحاول تهدئتها وبث الصبر في نفسها، لكنه في قرارة نفسه كان يتمنى أن يشاركها البكاء والنحيب، تقدم إليه الوالد واحتضنه بقوة، كان اللقاء يمتلأ بالأحزان والأشجان لكن أحدٌ منهم لم يجرأ على نطق اسمها تجنبا لاستقلاب انفعالات مؤججة

لا تحتملها قلوبهم. دعاه الوالد للجلوس وهو يضم زوجته إليه في حنان، كانت الأم محنية الرأس يبدو على ملامحها ألم شنيع، لم يتمالك حازم نفسه فشرع يقول في حزن ممزوج بالغضب والألم :

سألقي كل التزاماتي خلف ظهري للأبد، لن التزم سوى بشيء واحد فقط، الإنتقام ممن قتلوا رقية بأبشع وسيلة، حتى لو دفعتُ حياتي ثمنا لانتقامي .

لم يكد يأتي على ذكر اسمها حتى انهمرت الدموع من عيني الأم غزيرة، سعى زوجها في محاولة تطييب خاطرها وتهدئتها إلا أن دموعها كانت كالنهر الجاري بلا توقف، شعر حازم بالذنب ينهشه بشراسة فهمّ بالمغادرة، لولا أن استوقفته الأم قائلة من بين دموعها :

عدني يا بني أنك سوف تنتقم ممن فعلوا بها ذلك أبشع انتقام .

زاد حديثها المنفعل المؤجج بأقسى موجات الحزن والغضب من حماسه وغضبه، فهز رأسه إيماءا في بطأ قبل أن يقول في قسوة :

أنا لم يعد لدي شيء في الدنيا سوى الإنتقام وبمنتهى الشرسة .

تدخل الوالد قائلا في حزن :

أنا أتمنى أن يلقى من فعل ذلك يابني أشد أنواع العقوبة وأقساها ألما، لكني أرى أن تدع العدالة تأخذ مجراها حتى تنتقم منهم بدلا عنك.

قال حازم في مرارة دفينة :

العدالة بطيئة للغاية يا والدي وربما لا تمتد يدها إلى المجرمين في هذه الدنيا، وأنا لن أنتظر حتى الحياة الآخرة لأراهم يعاقبون

على جريرتهم ، سأشرع في طريق الإنتقام للنهاية حتى أقضي عليهم جميعا دون رحمة .

قال الوالد في إلحاح :

أخشى عليك يا بني من السير في هذا الطريق ألا تعود إلى سيرتك الأولى مرة أخرى.

ابتسم حازم في لا مبالاة تمتزج باليأس :

أنا لا أفكر بالعودة إلى حياتي الأولى مرة أخرى، فحياتي الماضية انتهت مع ذهاب رقية للأبد.

قال عبارته في حزن بالغ قبل أن يغادر المنزل في سرعة، تاركا الوالدين يبكيان في حرقة .

****

ما إن جاء اليوم التالي حتى كان حازم قد اتخذ عدة قرارات مصيرية، قرارات لن يتراجع عنها أبدا مهما طالت حياته. اتجه صوب مكتب اللواء زكرياء في بطأ سببه زحام الصباح الذي زاد من انفعاله وعصبيته، دلف بعد أن طرق عدة مرات على الباب في هدوء لا ينبئ عن شلال الغضب الهادر الذي يعصف داخله، لم يكد اللواء يلمحه حتى هب واقفا وهتف في ترحيب حار :

حازم! حمدلله على سلامتك، متي سمحوا لك بمغادرة المستشفى؟

صافحه حازم قائلا بلهجة أرادها هادئة للغاية:

لم يسمحوا لي في الواقع لكني أجبرتهم على ذلك.

تفحص اللواء وجهه بحذر وتوجس، كان يتعجب من هدوءه بعد ما أصابه من أحداث يشيب لها الولدان، ربما يكون الهدوء الذي يسبق العاصفة، هكذا تسائل اللواء داخل نفسه في قلق، ثم قال :

أعظم الله أجرك وأحسن عزائك، كان مصابا أليما لنا جميعا .

هز حازم رأسه و هو يجاهد ليبقي هادئا، أردف اللواء في حزم :

لن يهربوا بفعلتهم هذه طويلا، سأجدهم قريبا ثم أمزقهم تمزيقا.

مط حازم شفتيه قائلا في هدوء مشوب بالمرأة :

من فعلوا هذه الفعلة هربوا بالفعل ياسيادة اللواء.

لن يهربوا طويلا يا حازم أعدك بذلك.

أخرج حازم من جيب سترته ورقة مطوية ناولها للواء في صمت، طالعها الأخير بعينيه سريعا ثم اربد وجهه وهتف في ضيق بالغ :

استقالة! مهمتك يارائد حازم بدأت للتو في البحث عن هؤلاء المجرمين ومحاسبتهم على أفعالهم، فكيف تود الإبتعاد الآن يارجل!

تطلع حازم إلى عينيه مباشرة للحظات ثم سأله بنبرة قاسية :

وماذا سيحدث بعد القبض عليهم؟

سيقدمون لمحاكمة عادلة، ثم يقتص منهم القانون دون رحمة.

هز حازم رأسه نفيا قائلا في مرارة:

يؤسفني أن أقول أن ما تقوله ليس هو الحقيقة، فلو نجحنا في القبض عليهم وهذا مستبعد لمهارتهم في الإختفاء من جهة، ولقوة المنظمة التي ينتمون إليها من جهة أخرى، فإنهم

سيستقدمون أفضل المحامين في البلد كلها، ولن يفشل هؤلاء المحامون في تخفيف العقوبة لأقل حد ممكن، ولن يحدث هذا إلا بعد عدة سنوات من الآن إذا افترضنا حدوثه.

تمتم اللواء في حذر :

لهذا قدمت استقالتك، لتحاسبهم بنفسك بدلا من القانون،أليس كذلك؟

قال حازم بنبرة ساخرة تمتلأ بالمرارة :

هذا إذا نجحتُ في العثور عليهم.

أشاح اللواء بيده زاعقا في غضب :

أشعر جيدا بحجم المرارة الهائلة القابعة في أعماقك، لكن هذا ليس معناه أن تسعى لمحاسبة أناس دون أن يكون لك غطاء من القانون .

قال حازم متهكما :

وأين كان هذا القانون عندما طاردوها عبر أروقة المستشفى، ثم أضطروها لإلقاء نفسها من سطح المستشفى حتى لا ينتهك عرضها.

أحني اللواء رأسه آسفا ثم قال بنبرة صادقة :

صدقني أنا أشعر بالغضب الشديد أيضا، وأريد الإنتقام من هؤلاء الذئاب بأبشع وسيلة ممكنة، لذا لابد أن نتحد سويا للقبض عليهم ومحاسبتهم على جرائمهم، ولن تكون عقوبتهم أقل من الإعدام.

ابتسم حازم في مرارة قائلا :

الإعدام، أنا سأشعر بالدهشة إذا حكم عليهم القاضي بالأشغال الشاقة!

لم ينبس اللواء ببنت شفة، فأردف حازم في يأس:

لن يصلح التعامل بالقانون مع قوم لا يؤمنون به، صدقني هذا ضرب من الخيال.

صاح اللواء بغتة في صرامة غاضبة:

ولن أسمحُ لك بفعل ما تنتويه ولن أقبل الإستقالة.

صمت حازم قليلا ثم اقترب منه وقال في برود قاس:

أقبل أو لا تقبل هذا شأنك، لكن تذكر أنك لو سمحت لي باستجواب ذلك الحقير لربما منعتُ ما حدث.

أحنى اللواء رأسه في حزن مرة أخرى وكأنه يهربُ من مواجهة عينيه الملتهبتين كعيني تنين غاضب، فغادر حازم المكتب في خطوات سريعة ليبدأ أولى خطوات انتقامه الرهيب.

****

كان وكر هؤلاء الثلة من رجال منظمة المافية الإجرامية عبارة عن شقة فخمة في حي الزمالك، تلك المجموعة التي تتكون من المقدم كريم، أشرف البغدادي، والرجال الثلاثة الذين تسببوا في مقتل (رقية). جلس أشرف يحتسي الخمر من فم زجاجة كبيرة، في حين انتحى المقدم كريم لإجراء بعض اتصالاته الهامة، ما إن أنهى الإتصال حتى سأله أشرف في غيرة حاول إخفائها :

هل هناك جديد؟

لا جديد يذكر، سنعود لاستكمال مهمتنا بعد أسبوع من الآن، بعد أن تكون الأمور قد هدأت بعض الشيء.

ثم التفت إلى الرجال الثلاثة قائلا في سخرية :

وأنتم، كيف عجزتم عن اقتناص امرأة واحدة دون سلاح يحميها، هل جبنتم عن مواجهتها أم رقت مشاعركم عند رؤية جسدها؟

رد رفعت في سرعة:

لقد فاجئتنا جميعا عندما قفزت بلا تردد، لم نكن نتخيل قط أن تقفز من سطح المبنى المرتفع لتهرب من بين أيدينا.

حدجه كريم بنظرة صارمة ثم قال موجها حديثه لأشرف:

كيف تعتمد على رجال خرعين كهؤلاء؟ لا عجب أنك لم تكمل عملك حتى هذه اللحظة .

قال أشرف بنبرة صارمة :

هؤلاء الثلاثة هم أكثر من أعتمد عليهم من بين رجالي جميعا، فهم يملكون من المهارات ما يمكنهم من تنفيذ مهامهم بإتقان وتفان، ولايتورعون عن ارتكاب أي فعل مهما كان مخجلا، وبالنسبة لتلك المرأة فمن كان يتوقع أن تفضل الموت على الإغتصاب.

قال :

الرجل الناجح هو الذي يتوقع أسوأ الإحتمالات مهما كانت بعيدة.

هز أشرف كتفيه في لامبالاة، فأردف كريم :

انتبهوا إلي جيدا، فبعد أسبوع من الآن ستبدأون في تنفيذ أخطر مهمة قمنا بها على الإطلاق، فقد سمحت لنا الإدارة في إيطاليا بنقل كمية كبيرة من مخدر الشابو عبر الحدود المصرية الليبية إلى مخزننا في السادس من أكتوبر ، وعندما نحصل عليه سنبدأ في تجهيزه لتوزيعه بعد ذلك في محافظات القاهرة والجيزة والإسكندرية لتزويد التجار بالصنف الجديد.

سأله رفعت في اهتمام :

ولماذا قررت المنظمة توزيع مخدر الشابو الآن؟

أجابه كريم و هو يفرد رجليه أمامه :

لأنه مخدر كان يقتصر توزيعه على الأثرياء فقط لارتفاع ثمنه، لكننا استطعنا إنتاجه في معاملنا بطرق رخيصة لنتمكن من توزيعه على الجميع بلا استثناء.

سأله فوزى أحد الرجال الثلاثة:

ولماذا في تلك المحافظات بالتحديد؟

التفت إليه كريم مجيبا في نفاذ صبر :

لأنه بدأ ينتشر بالفعل في صعيد مصر عن طريق العمالة القادمة من الخارج وبعض العصابات التي تصنعه في معامل خاصة لكن بكميات قليلة، وفرصتنا نحن أن نستغل ضعف الإنتشار في تلك المحافظات كثيفة السكان ونبيعه بأسعار تسمح للجميع باستخدامه حتى لا يكون حكرا على الأثرياء فقط.

وهل ستكون الكمية كبيرة؟

ابتسم كريم قائلا في لهجة جذلة:

طنا كاملا كمقدمة فقط.

أصابهم الرقم بدهشة بالغة، قطع أشرف ذلك الصمت يسأله محاولا إخفاء حنقه:

ولماذا يخصونك بتلك المعلومات بالذات؟

أطلق كريم ضحكة ساخرة ثم قال :

لأنك بالنسبة إليهم مجرد منفذ لأوامرهم فقط يا عزيزي أشرف، أما أنا فحلقة وصل هامة بين الإدارة في إيطاليا والتنظيم هنا، وهم يعتمدون علي بما لدي من خبرة كبيرة وعلاقات قوية، ولا تنسى أنني أنا من رشحتك لهم منذ البداية.

ابتلع أشرف ريقه في صمت، حاول تجاهل الأمر برمته قائلا في حسم :

لا تقلق سنكون جاهزين بعد أسبوع للقيام بتلك العملية الكبيرة.

أشار كريم بكري بإصبعه و هو يقول :

الإدارة تعتمد على استعدادكم التام والإلتزام بالخطة الموضوعة في عناية فائقة، خاصة وأن القبضة المصرية على حدودها الغربية صارت أضعف منذ ثورة يناير، لذا ستكون فرصتنا عظيمة لنصبح جميعا من فاحشي الثراء.

أطلق الرجال الثلاثة ضحكات قوية وقاسية، بادلهم أشرف ابتسامة ذئب يستعد للإنقضاض على فريسته في قسوة، أما كريم فأغمض عينيه في ارتياح وثقة وراح يحلم بالثراء الفاحش.

****

شرع حازم منذ غادر مكتب اللواء في تنفيذ أولى خطوات خطته، الخطة الذي يسعى من خلالها إلى تدمير تلك المنظمة وقتل كل أفرادها عن بكرة أبيهم، وعلى رأسهم أشرف البغدادي وكريم بكري والرجال الثلاثة. ما إن تذكرهم حتى شعر بسخط كاسح كاد يدفعه لإفلات عجلة القيادة لكنه تماسك بسرعة، كانت تراوده منذ موت حبيبته شعورا يدفعه للإنتحار والتخلص من تلك الحياة بالغة الخسة ووالنذالة والقسوة، لكنه كان يدرك حقيقتين لا مفر منهما: أولهما أنه بتلك الخطوة سيبوأ بغضب الله وخسارة آخرته، ثانيهما أنه لن يفيدها انتحاره بأية فائدة، بل على العكس من ذلك سيترك هؤلاء الملاعين يفسدون في الأرض كيفما شاءوا. لذا نحى مشاعره المظلمة جانبا مستخدما كل إرادته وحرصه على الإنتقام، وبدأ في اتخاذ خطوات عملية تمكنه من توجيه ضربات قاصمة شرسة للمنظمة حتى تسقط تماما في النهاية.

بعد أن قدم استقالته ذهب إلى بعض أصدقائه الذين على اطلاع كامل بأوراق القضية، حاول إقناعهم بضرورة الحصول على ذلك الملف لاحتياجه الشديد له، رفض أغلبهم الأمر للمسئولية الكبيرة التي سيتحملونها لو اكتشف اللواء تورطهم، ووافق اثنين فقط بعد تردد، بعد أن طلبها منهم بدافع من الصداقة والزمالة لسنوات طويلة، في الحقيقة كانوا جميعا متأثرين وغاضبين لما أصاب خطيبته الراحلة، كانوا يشعرون بضرورة مساعدته بشكل أو بآخر، لكن الخوف من مخالفة القانون جراء مساعدته منعت معظمهم من الإستجابة له، فمنحه ذلك شعور عميق بعدم الثقة في البشر و الإعتماد على نفسه ومهاراته في تنفيذ انتقامه، أعطاه زميليه كل ما يتعلق بتلك القضية على أمل الشعور براحة الضمير حتى لو تعرضوا للمسائلة القانونية. قضي حازم ليلتين يقرأ أوراق القضية كاملة دون أن يترك تفصيلة و لو صغيرة، فكل

معلومة قد تمكنه من القبض على أعدائه وتحطيم أعناقهم بقسوة، وكانت هذه هي الخطوة الأولى والأهم على الإطلاق، ما إن أنهاها حتى شرع على الفور في تنفيذ الخطوة الثانية مباشرة، ذهب إلى زميله السابق وصديق عمره (رأفت خيري) في مكتبه في مديرية أمن القاهرة، احتضنه الأخير بقوة ثم دعاه إلى الجلوس قائلا في عتاب:

لقد وصلني خبر استقالتك مساء أمس من سيادة اللواء زكريا، حاولتُ الإتصال بك مرارا لكن دون جدوى، صدقني هذه أسوأ خطوة ممكن أن تخطوها الآن يا صديقي العزيز.

لم ينبس حازم ببنت شفة فأردف صديقه محاولا ممازحته :

حاولتُ مقابلتك بعد خروجك من المستشفى لكنك كنت تعتذر باستمرار، هل تعلم أن زوجتي كانت قد جهزت الغداء أكثر من مرة، وفي كل مرة أصاب بالإحراج و أنا أعتذر لها عن عدم استطاعتك المجيء.

لم يبدو على وجه حازم التأثر أو الإهتمام بكلام صديقه، فأردف رأفت :

حتى أن زوجتي أخبرتني أننا لسنا أصدقاء حقيقين وإلا كنتَ قبلتَ دعوتي.

تمتم حازم في خفوت :

اعذرني ياصديقي فقد كان لدي ما يشغلني بشدة.

سأله رأفت في اهتمام وحذر بالغين :

وما هو هذا الشيء الذي يشغلك لهذه الدرجة؟

صمت حازم قليلا ثم قال في صرامة:

أريد مساعدتك للإنتقام من هؤلاء المجرمين.

قال رأفت في حيرة :

لن أتأخر عنك يا صديقي ولكنك تركت عملك بالفعل.

هز حازم رأسه نفيا ثم قال وهو يقوم من مقعده :

الإنتقام ليس له علاقة بعملي السابق، بل إن عملي كان سيؤخر ذلك الإنتقام سنوات عديدة.

سأله رأفت و هو يقوم واقفا بدوره :

وما الذي تنوي فعله الآن بعد أن صرتَ وحيدا دون شارة أو سلاح؟

أجابه حازم في سرعة :

الشارة لن تفيدني في الأيام القادمة، أما السلاح فأنا لدي منه قطعتين وعدة خزن.

سأله رأفت في دهشة :

من أين حصلتُ عليهما!

أنت ضابط مثلي وتعرف من أين نحصل على أسلحة دون تسجيل.

تطلع إليه رأفت صامتا، فأكمل حازم :

لقد اطلعت على كل ماله علاقة بتلك القضية منذ ظهور تلك المنظمة الإجرامية إلى العلن وحتى لحظة سقوط ذلك اللعين في قبضتي، وقد أعددتُ خطتي بالفعل وأحتاج مساعدتك في تنفيذها.

تسائل رأفت في حماس ممزوج بالحذر :

وما الذي أستطيع تقديمه، أخبرني ولن أتأخر عن فعله.

التقط حازم نفسا عميقا ثم قال :

لا أريد منك الكثير ياصديقي ولكنه مع ذلك ضروري للغاية.

مثل ماذا؟

أريد منك أن تطلعني على تطورات القضية أولا بأول ثم أريد الحصول على كلبين مدربين أعلى تدريب ممكن، ويمتلكون شراسة لا حدود لها و لكنهما مطيعين للغاية وعلى درجة عالية من الذكاء أيضا.

بدا على وجه رأفت الدهشة العارمة وهو يسأله :

كلبين شرسين وعلى درجة عالية من الذكاء، لماذا؟

مال حازم ناحيته قائلا في صرامة :

لمساعدتي في تنفيذ مهمتي.

سأله رأفت ودهشته تتعاظم :

كنتُ أظنك ستطلب مساعدتي شخصيا في تنفيذ مهمتك!

هز حازم رأسه نفيا قائلا في لهجة صادقة:

أنا واثق أنك لن تتأخر عن مساندتي أبدا لكني لا أريد أن أزج بك في رحلة انتقامي التي أدرك يقينا أنني لن أعود منها، لا أريدك أن تلوث يدك بدماء هؤلاء الخنازير، ولا أريد أن أعرضك أيضا للخطر، فأنت لديك عائلة مسئول عن حمايتها.

شعر رأفت بالحرج فقال محاولا الإعتذار :

أنا يا صديقي لن أتقاعس عن مساعدتك مهما بذلتُ من جهد، لكن الطريق الذي تنوي السير فيه طريق محفوف بالمخاطر ولا يسلم صاحبه من الأذى، هذا بخلاف التغيير الذي سيطرأ على روحك جراء غوص يدك في الدماء الكثيرة.

قال حازم في لهجة حاسمة لا تخلو من الإنفعالات :

لقد تغيرت بالفعل يا صديقي منذ أن تقاعستُ عن حماية رقية بالرغم من احتياجها لمساعدته، ومنذ وقفت أمام قبرها لا أدري كيف أعتذر لها، صدقني لن أحترم نفسي أبدا حتى أنفذ فيهم أبشع صور الإنتقام.

كانت عينا رأفت تعبران عما يجيش به صدره من انفعالات حارة، قام متجها إلى صديقه واحتضنه، ثم قال :

لن أتأخر عنك في أي طلب تريده مهما كان ماتطلبه خطيرا، روحي فداء الإنتقام لرقية.

تطلع إليه حازم في تأثر تعداه سريعا وهو يهم بمغادرة مكتبه، توقف مرة أخرى والتفت قائلا :

تذكر، أريد ذلك الكلبين خلال هذا الأسبوع حتى أستطيع الشروع في تنفيذ الخطة.

أومأ رأفت برأسه إيجابا ثم سأله :

بالمناسبة لم تذكر لي تفاصيل خطتك بعد.

جاوبه حازم بابتسامة حزينة ثم رحل في سرعة، وصمت.

****

سارت سيارة نقل كبيرة في الصحراء الغربية في سرعة متوسطة، كأن سائقها يحذر من مفاجئات الطريق التي عانى منها من قبل عدة مرات، أو أن لديه من الوقت الكثير قبل أن يذهب إلى المكان المقصود، قال رفيقه الذي يجلس في المقعد المجاور في تهكم :

الشمس كادت أن تغيب وأنت تمشي بتلك السرعة التي تذكرني بحركة سلحفاة مسنة.

لم يرد السائق كأنه لم يسمع عبارته أو سمعها ولم يبالي، فأردف زميله ساخرا :

لايوجد إشارات ضوئية ولا إزدحام مروري، مما تخشى أيها الرجل العجوز.

قال السائق الكهل في برود:

لا أريد أن تفاجئني صخرة أو جذع شجرة، هذا بخلاف أنني أحب الإستمتاع بجمال الطبيعة من حولي.

تلفت الرجل حوله في حيرة ثم أكمل معزوفته الساخرة:

أي طبيعة تلك التي تتحدث عنها أيها العجوز، الرمال الصفراء المنتشرة في كل جانب، أم الشجيرات التي تنتشر وسط الرمال كالبذور التي تظهر على الجلد، أم الأفاعي التي تخرج ليلا زاحفة على بطونها لتصيد فئرانا أوقعها حظ السيء في طريق أنيابها؟

قال الكهل :

هل تعلم، المشكلة لا تكمن في كونك جديد على هذا المجال، لكن في تلك النبرة الساخرة التي تستعملها دون انقطاع.

قال الرجل بالنبرة الساخرة ذاتها :

لا أستطيع التحدث بدون السخرية أبدا أيها المسن.

مط العجوز شفتيه دون أن يتكلم، فأردف الرجل:

إذا كنت تشعر بالتعب فاترك لي مقعد القيادة دون حرج.

جاوبه صمت مطبق فمط شفتيه في عدم رضا، كانت الشمس قد آيلت للغروب عندما توقف السائق بسيارته الكبيرة بغتة وكأنه ينتظر شيئا ما، مضت لحظات من الصمت كانت بالنسبة لمرافقه أشبه بساعات دفعته ليقول :

لماذا توقفت أيها العجوز، هل تنتظر معجزة ما أم سنظل متوقفين هكذا حتى نموت؟

كعادته تجاهله الكهل تماما و هو ما يزال على حالته من الصمت والسكون، بغتة ظهرت من خلف تبة عالية عدة سيارت جيب دفع رباعي اتجهت نحوهم في سرعة، اعتدل الكهل في انتباه كامل في حين تمتم مرافقه في تهكم :

أخيرا ظهرت حمامات السلام.

توقفت السيارات الأربع على بعد عدة أمتار من السيارة الكبيرة، هبط من كل سيارة رجلين توقفا أمام سيارتهم في صمت، ثم هبط الكهل من سيارته الكبيرة في خفة لا تتناسب مع سنوات عمره الخامسة والستون، في حين قفز مرافقه من السيارة بدوره وهو ينظر إلى ما حوله في استخفاف، توقف الأول أمام إحدى السيارات قائلا لرجل يقف في ثبات وثقة:

هيا يا مجدي، اجعل الرجال يبدأون في نقل البضاعة على الفور.

أشار مجدي إلى رجاله إشارة تعني البدأ في حين سأل الكهل :

من هذا الرجل الذي يرافقك اليوم ويحمل وجهه كل هذه الملامح السمجة.

التفت الكهل إلى مرافقه يتطلع إليه في صمت ثم قال :

إنه أحد هؤلاء الرجال الذين يتطلعون إلى ما حولهم من ربوة مرتفعة، لكني قررت أن تكون رحلته هذه هي الرحلة الأخيرة ليكمل سخريته وتهكمه في الجحيم.

ابتسم مجدي في سخرية شامتة قائلا في استمتاع :

دع لي هذه المهمة البسيطة يا رجل، فأنا أحب أن أقضي بنفسي دائما على من يظنون أنفسهم فوق الجميع.

هز الكهل رأسه في لا مبالاة قائلا في هدوءه المميز :

هذا ما كنت سأطلبه منك في الواقع فلا أحب أن يستجوبني رؤسائي عن قتل هذا الحقير.

ألن تحتاجه في رحلة العودة؟

أنا لا أحتاج لأحد أبدا يا رجل.

ابتسم مجدي ابتسامة واسعة ثم قال:

على الرحب والسعة يا صديقي العجوز.

انتهى الرجال من نقل كميات كبيرة من مخدر الشابو من سياراتهم إلى السيارة الكبيرة في سرعة قبل أن يعودوا إلى سياراتهم، تقدم مجدي ناحية الرجل الذي يرافق الكهل في هدوء، سأله المرافق :

هل أتيتَ لتمنحني مكافأتي يا هذا.

اتسعت ابتسامة مجدي وهو يجيب في حماس زائف:

بالتأكيد أيها الرجل، أنت تستحق مكافأة مجزية لشجاعتك في مرافقة الكهل إلى هنا عبر طريق الصحراء الموحشة.

قال في استخفاف :

إنها مهمة بسيطة لا تستحق كل هذا الثناء، ما أثار ضيقي هو قيادة العجوز البطيئة، لقد عرضتُ عليه أن أقود بدلا منه للوصول سريعا ولكنه...

بتر عبارته بغتة عندما طالعته فوهة المسدس المصوبة إلى وجهه وحامله يبتسم في سخرية قائلا في تهكم متقمصا أسلوبه:

دعك مما عرضته على ذلك العجوز، ما أعرضه عليك الآن هو بطاقة مجانية للوصول السريع.

ارتعش جسد المرافق الساخر في عنف ثم تطلع إلى الكهل في نظرة ضارعة، تجاهله الكهل تماما وهو ينظر إلى ساعته ثم قال في برود :

هيا أنه مهمتك حتى أبدأ رحلة العودة.

انقلبت النبرة الساخرة الهازئة إلى نبرة خانعة مترجية:

أرجوك لا تقتلني فأنا على وشك الزواج الشهر القادم و...

قاطعه مجدي في سخرية :

لا بأس يارجل، سيتزوجها ذلك العجوز بدلا منك.

قال عبارته ثم أطلق رصاصة من مسدسه الضخم هشمت رأسه وأسقطته على ظهره في عنف مثيرا عاصفة من الأتربة حول

مكان سقوطه، لتنهي تلك الرصاصة الصامتة الباردة سخرية وتهكم الأخير إلى الأبد.

أخرج القاتل من جيب سترته لفة أوراق أعطاها للكهل قائلا:

هذه أوراق ثبوتية تمكنك من الخروج من أي مأزق قد يواجهك.

وضع الكهل الأوراق في جيبه ثم اتجه في صمت إلى سيارته لبدأ رحلة العودة في ظلام الليل.

صاح مجدي في تهكم :

استمتع يا عزيزي أيمن برحلة هادئة خالية من المنغصات، هنيئا لك.

****

جلس السائق العجوز على أكثر المقاعد إراحة قبل أن يصب لنفسه كأسا من الويسكي ثم يحتسيه على مهل، شاركوه الشراب أشرف البغدادي وكريم الكردي والرجال الثلاثة، صاح أشرف في حماس:

نخب نجاح عمليتنا الكبرى.

صاح كريم بدوره :

نخب بداية الطريق للثراء الحقيقي.

لم يبالهم الكهل بالا مكتفيا بارتشاف كأسه في صمت، جرع كريم كأسه ثم سكب لنفسه كأسا آخر جرعه بدوره ثم قال:

هنيئا لي ثرائي الفاحش، وبحث جهاز الأمن عني في كل مكان دون جدوى.

ضحك الجميع ثم سأله أشرف :

بالمناسبة، كيف ستتحرك في يسر والجميع يبحث عنك؟

حرك كريم يده الممسكة بالكأس قائلا :

بعض أدوات المكياج والأوراق التي سيعدها لي خبراء المافيا وأصبح شخصا جديدا تماما.

صفق فوزى بيده قائلا في زهو:

إنها عصابة المافيا القوية التي لا تترك أفرادها في مأزق أبدا.

قال أشرف في تسائل و فضول :

لكني لا أعرف كيف ستتمكن المنظمة من توزيع هذه الكمية الكبيرة في شهر واحد فقط.

قال كريم في سخرية :

ومن قال أن الكمية كلها ستوزع في شهرٍ واحد ؟

تطلع إليه أشرف في نظرة متسائلة محنقة، فأردف في زهو :

ستقسم تلك الكمية الكبيرة على كميات صغيرة توزع كل كمية منها كل شهر على التجار الكبار في المحافظات الثلاثة بالتحديد، القاهرة والجيزة والإسكندرية.

انعقد حاجبا أشرف قائلا في ضيق:

لماذا تصر على إظهاري بمظهر التابع دائما؟

أطلق كريم قهقهة عالية ثم هتف :

أنت بالفعل مجرد تابع لي يا عزيزى.

لم يستطع أشرف تمالك أعصابه الثائرة، بغتة وجد نفسه يندفع نحو كريم ثم يلكمه بقوة على فكه فيلقيه أرضا في عنف، قام كريم بصعوبة بسبب حالة السكر التي بدأت تسيطر عليه، طوح يده في وجه غريمه لكن أشرف تفاداها بخفة، تدخل الباقون لمنع تلك المعركة من الإحتدام، صاح كريم غاضبا :

سوف تندم على جرأتك هذه أيها الحقير.

ابتسم أشرف في ازدراء وهو يجلس على نفس الأريكة التي كان يجلس عليها و كأن شيئا لم يكن، وقف كريم في صعوبة وهو يحدجه في نظرة متوعدة وغاضبة.

****

دلف حازم إلى ورشة خاصة لإصلاح السيارت ثم ذهب مباشرة إلى صالة داخلية كبيرة يعرفها مسبقا، توقف أمام سيارته متصفحا إياها في إمعان و تركيز، حيثُ كان قد أجرى عليها تغييرات جذرية في الأيام القليلة الماضية، لحق به صاحب الورشة قائلا في احترام :

كيف حالك ياسيادة الرائد، لقد حضرت مبكرا قليلا عن الميعاد المتفق عليه.

صافحه حازم في هدوء قائلا:

لم أعد رائدا يارجل، وبالنسبة للتبكير فليس لدي وقت كاف الإنتظار.

لم يكن حسين الميكانيكي يعلم بأمر استقالته لكنه فضل تجاوز تلك النقطة تفاديا للإحراج، قال في سرعة :

لقد أدخلتُ كل التغييرات التي أردتها لكنها تكلفت مبالغ طائلة.

قال حازم في لا مبالاة :

لا تهمني التكاليف، ما يهمني هي النتيجة فقط.

أشار حسين بإصبع الإبهام علامة الثقة ثم بدأ يشرح في حماس:

غيرتُ إطارات السيارات الأربعة إلى إطارات مضادة الرصاص، وتم تغيير الزجاج إلى زجاج مضاد الرصاص كذلك، وأضفت لوح كيفلار عند باب السيارة الأمامي الأيسر لحمايتك في حالة إطلاق الرصاص عليك من ذلك الجانب .

لم ينبس حازم ببنت شفة و هو يتحسس بيده الزجاج و الإطارات الجديدة، فتح باب السيارة الأيسر لإلقاء نظرة فاحصة على لوح الكيفلار المضاد الرصاص، لم يكن ليكتفي بتلك النظرة الفاحصة السريعة ليتأكد من جودة السيارة و متانتها، لذا جلس أمام عجلة القيادة ولنطلق بها إلى الخارج في سرعة كبيرة، شرع يحاور بها ويناور متخيلا عدة سيارات تطارده في استماتة، توقف بعض خمس دقائق من السير بسرعة في طرق خالية في هذا الوقت المتأخر من الليل، لم يكد يهبط حتى ابتعد مسافة مترين ثم استل مسدسه (كولت ام١٩١١) كان قد زوده بكاتم للصوت ثم راح يطلق رصاصاته كلها على جميع نوافذ السيارة دون أن تنجح في اختراقها، أبدل خزانة الطلقات الفارغة بأخرى ممتلئة ثم أطلق على إطاراتها الأربعة في تتابع سريع، كانت النتيجة جيدة للغاية فتنهد في ارتياح، حينئذ سأله الميكانيكي في حذر:

هل بإمكاني أن أسألك سؤالا يلح علي بشدة؟

أومأ حازم برأسه إيجابا في صمت و هو يتأمل سيارته التويوتا السوداء في اهتمام بالغ، قال حسين في سرعة وكأنه يخشى أن يفقد شجاعته :

لما كل هذه التعديلات يا سيادة الرائد، هل ستعلن الحرب على الإرهاب.

ابتسم حازم لطرافة التشبيه، صمت قليلا ثم أجابه في اقتضاب :

اقتربت كثيرا من الحقيقة.

لم تشفي تلك الإجابة غليله لكنه لم يكن ليجرأ على سؤاله المزيد، حول حيرته لسؤال آخر :

مادام الأمر هكذا لمَ لم تدعم السيارة كلها بألواح الكيفلار ؟

لأن تلك الألواح ثقيلة وستمنع السيارة من المناورة بسهولة و ستخفض أيضا من سرعتها كثيرا.

ردد الميكانيكي في حيرة :

مناورة، سرعة، يبدو أنك ستخوض حربا بالفعل يا سيادة الرائد.

ابتسم حازم دون أن يعلق، كاد حسين يلقي سؤالا ثالثا لولا أن انطلق رنين هاتف حازم بغتة فأخرجه من جيبه في لهفة، لم يكد يلقي نظرة على هوية المتصل حتى أجابه :

كيف الحال يا صديقي العزيز ، هل هناك جديد.

قال رأفت في حماس :

بالتأكيد، لقد بحثت عن كلبين بالمواصفات التي أردتها حتى عثرت على بغيتك عند أحد المدربين المخضرمين.

بدا على وجهه الإهتمام و هو يسأله :

حسنا فعلت أين أجد هذا المدرب؟

قال رأفت :

في مزرعة لتربية الكلاب في طريق اسكندرية الصحراوي، لكن ينبغي عليك الذهاب إلى تلك المزرعة بنفسك لمقابلة المدرب ليعلمك كيفية التعامل معهما و وسائل السيطرة عليهما، فهما كلبان شرسان للغاية ولا يسهل السيطرة عليهما بسهولة.

قال حازم في هدوء واثق :

لا بأس يا صديقي سأحضر في الصباح الباكر ، ادلي لي بالعنوان.

أعطاه رأفت العنوان بالتفصيل، شكره حازم بصدق ثم اغلق هاتفه و ركب سيارته القوية و انطلق بها، كان يشعر براحة عميقة لنجاحه في تنفيذ أول خطوة من خطوات انتقامه.

****

تطلع حازم في صمت واهتمام إلى الكلبين من نوع (الچيرمن شيفرد) الذين نبحا في شراسة رهيبة عندما توقف أمامهما، حاولا الكلبان فك أغلال أعناقهما للإنقضاض عليه، فانعقد حاجباه وهو يقول للمدرب :

صوتيهما سيسبب لي إزعاجا بالغا و...

قطع المدرب عبارته و هو يشير إليهما بيده صائحا في صرامة آمرة أن يتوقفا، توقف نباحهما على الفور في سرعة آلية تثير الإعجاب، بدا على وجه حازم الإعجاب و الرضا لاستجابتهما السريعة، أشار إليه المدرب أن يقترب من الكلبين وهو يربت على رأسيهما، زمجرا الكلبان مع اقتراب حازم منهما لكن المدرب صاح بصرامة فأحنيا رأسيهما في خضوع، شرع حازم في التربيت على جسديهما حتى يعتادا عليه، وبعد عشر دقائق من إطعامهما والتقرب إليهما بدآ يتعاملان معه كصديق قديم، نقده

حازم ثمنيهما ثم قادهما إلى سيارته المصفحة، تذكر شيئا فالتفت إلى المدرب يسأله في فضول:

بالمناسبة، نسيتُ أن أسألك عن اسميهما.

ابتسم المدرب وهو يقول :

كظيم ونديم.

ابتسم حازم و هو يومأ برأسه متفهما، فتح باب السيارة الخلفي ثم نادي عليهما:

كظيم، نديم.

استجابا لندائه على الفور فدلفا إلى السيارة ثم جلسا متجاورين وهما يلهثان في قوة كأنهما بذلا جهدا جهيدا، اتخذ حازم مقعده خلف عجلة القيادة ثم تطلع إلى الكلبين عبر المرآة الداخلية، راح يفكر في الخطوة القادمة وما ستمثله من خطورة له و لكل من لديه ارتباط به، لهذا رفض مساعدة صديقه وودفعه خارج لعبته الخطيرة خوفا على حياته، لن ينكص أبدا عن الأخذ بثأره مهما واجه العراقيل، سيخوض حربه الضروس برفقة هذين الكلبين فقط و دون أن يطلب مساعدة من أحد. أدار مفتاح التشغيل ثم قاد سيارته عائدا إلى منزله.

****

تلقى حازم مكالمة هاتفية من رأفت يخبره فيها عنوان أحد البؤر الإجرامية التي توزع مخدر الشابو، والتي من المحتمل أيضا أن توصله إلى غريمه الذي اختفى تماما بعد هروبه من زنزانته بواسطة ذلك الضابط الخائن. كان حازم يشعر بالغضب يهصر قلبه بقسوة بالغة، فلولا خيانة ذلك المقدم ومنع اللواء من استجواب

ذلك الحقير لكان الوضع مختلفا تماما، كانت ستظل رقية حتى هذه اللحظة حية ترزق، بالرغم منه سالت من عينه دمعة ساخنة بعد أن قاومها بضراوة، مرارة هائلة أخذت بخناقه دون هوادة، زفر في ضيق وهو يبرح مكانه لإحضار زجاجة عصير باردة، أخذ يعب منها في جوفه كأنه يحاول إذهاب تلك الحرارة التي تكاد تشوي قلبه، تمتم في سخط و غضب :

اللعنة على المجرمين و الخونة.

ود لو أمسك بأعناقهم فحطمهمم في عنف لا مثيل له، تتطلع إلى ساعته التي أشارت إلى التاسعة مساءا، لم يكن الوقت مناسبا بعد لاقتحام ذلك الوكر لكن شعوره بالملل دفعه للنزول مبكرا، ارتدى سترة سوداء و بنطال مماثل، وضع في جيبه لثاما أسودا ليداري به وجهه إذا ما حدث قتال، أشار للكلبين الرابضين في صمت ينتظران تلك الإشارة للتحرك والقتال، فتح باب السيارة الخلفي لهما فدلفا على الفور، ثم سار بسيارته في شوارع القاهرة الجانبية المظلمة إلا من لمبات إضاءة خافتة لم تنجح في هزيمة سواد الليل وظلمته إلا يسيرا، لتصنع السيارة مع الليل مزيجا رائعا من الرهبة و الغموض، كان يود لو انقضى الوقت سريعا و حل منتصف الليل ليهاجم الوكر بقسوة هائلة، سار بسيارته على مهل مستهدفا قتل الوقت الذي بدا و كأنه يسير في تؤدة مستفزة، لكن صرخة شقت سكون الليل صكت مسامعه وألهبت حواسه، انزل زجاج السيارة ليستطيع تحديد مكان تلك الصرخة التي تبدو كصرخة امرأة فزعة ملتاعة تطلب النجدة، لكن المرأة لم تكرر استنجادها تاركة إياه في حيرة من أمره، لم يجد حازم بدا من الخروج من سيارته وإخلاء سبيل الكلبين لمعرفة مكان المرأة الفزعة، لم يكد الكلبان يهبطا على قوائمهما حتى انطلقا كسهمين

مارقين يعرفان هدفهما جيدا، أو كأنهما يرون شيئا لا يستطع هو رؤيته. اندفع خلفهما في سرعة وهو يستل مسدسه استعدادا للتدخل على الفور، اندفع الكلبين في طريق جانبي ثم أخذا ينبحان في شراسة هائلة، لم يكد يلحق بكلبيه حتى طالعه أربعة أشخاص ممسكين بامرأة ويحاولون الإعتداء عليها بعد أن مزقوا جزءا من ملابسها، بدت المرأة وسطهم كغزالة هزيلة وسط عصبة من الضباع القاسية، حاول الرجل الذي يضع يده على فم المرأة لمنعها من الصراخ إخراج سلاحه الأبيض لتهديد المتطفل عليهم و منحه درسا قاسيا لمنعه من التدخل في خصوصية الغير ، كان المشهد مقززا في نفس حازم فصرخ في كلبيه بصرامة آمرة ليهجما على الضباع الحقيرة، هاجما الكلبين رجلين منهما في شراسة بالغة، صرخا الرجلين في رعب وألم وهما يقاومان الكلبين الذين استحالا إلى وحوش ضارية، حاولا الآخران الهرب لكنهما فوجئا بحازم يصوب نحوهما مسدسه في برود قاس ثم يطلق رصاصاته على فخذيهما دون تردد، سقطا الرجلان يصرخان صرخات مكتومة لا تبين كم الآلام التي يعانيانها، في حين كانا الكلبان ما يزالا يتشبثان بالرجلين في استماتة على الرغم من مقاومتهما المستميتة للفرار من أنيابهما. وقف حازم يتطلع إليهما في برود وقسوة متجاهلا أنينهما المزعج، بإشارة من يده حررهما الكلبين من بين أنيابهما و مخالبهما وتركاهما جسدين مثخنين بالجراح، أجرى حازم اتصالا بالشرطة ليبلغ عن المجرمين وعن مكانهم وفعلتهم دون أن يظهر هويته، توجه تلقاء المرأة التي تبكي في حرقة و جسدها يرتعد في عنف، مد إليها يده ليساعدها على النهوض، خلع سترته ثم أعطاها إياها لتغطي بها جسدها، تطلعتْ المرأة إلى الكلبين في خوف فأشار إليهما بالعودة إلى السيارة ، سألها في إشفاق :

ما الذي أخرجك يا سيدتي في هذا الوقت المتأخر من الليل؟

قالت من بين دموعها :

خرجت لأحضر الدواء لطفلي من صيدلية قريبة من منزلي، لكني فوجئت بهم يقطعون علي الطريق بسيارتهم ثم يجذبونني داخلها قبل أن استوعب الموقف .

هز رأسه متفهما ثم قال في رفق:

تعالي معي لنحضر الدواء ثم أعيدك إلى منزلك قبل أن ينتبه لغيابك أحد.

أعاد حازم المرأة إلى بيتها بعد أن ابتاع لها دواء و ملابس غير التي تمزقت، نظر إلى ساعته التي أشارت إلى الثانية عشر إلا الربع، خاطب الكلبين وهو يهرع نحو العنوان الذي أملاه له صديقه:

لقد أتممتم مهمتكم الأولى بنجاح عندما توصلتم إلى مكان تلك المسكينة و إنقاذها من بين براثن هؤلاء الملاعين، وها قد بدأ الإختبار الثاني بعده مباشرة، هيا استعدا لننقض عليهم ونمزقهم شر ممزق.

وانطلق بسيارته في سرعة يشق سكون الليل نحو بؤرة إجرامية قد توصله إلى هدفه الذي يتحرق غضبا للقضاء عليه قضاءا مبرما.

****

انطلق حازم يدفعه غضبه للسير بسرعة كبيرة، اخترق الشوارع الساكنة بصوت محرك سيارته المرتفع الذي بدا كأنه يشاركه غضبه مطلقا زمجرة عالية، توقف أمام بناية سكنية تتكون من

خمسة طوابق، تطلع إلى البناية للحظات قبل أن يهبط مع كلبيه واتجهوا إلى داخل البناية في حذر، صعد الدرج في هدوء مع كلبيه الذين يتشممن المكان بأنفيهما المدربين، زمجر أحدهما وهو ينظر للأعلى تبعه الكلب الآخر، كانا ينتظران الإشارة للإنطلاق فورا إلى أهدافهم البشرية وتمزيقهم إربا دون رحمة. أكمل حازم الصعود إلى أعلى وهو يلتفت حوله خوفا من مفاجأة غير متوقعة، لم يكد يصل إلى الطابق الأخير حتى بدا على الكلبين العصبية، أشار إليهم في صرامة أن يسكنا، قبع في مكانه يتنصت على الحديث الدائر في الداخل للحظات، التقط نفسا عميقا ثم اقتحم المكان في عنف مباغت، تبعه كلبيه في عنف أشد، كان هناك سبعة أشخاص بينهم امرأتين ترتديان ملابس فاضحة، ما إن طالعهم وجه حازم الغاضب ويده الممسكة بمسدس ثم الكلبين المرعبين حتى انتفضت قلوبهم داخل أجسادهم في قوة، أطلقتا المرأتان صرختان مدويتان لكن حازم أخرسهما بإشارة صارمة و نظرة مخيفة، لم يسمح الكلبين للرجال الخمسة بإتاحة الفرصة لإبداء رد فعل مناسب، أو غير مناسب، حيث انقضا عليهم في شراسة ثم شرعا في تمزيقهم في قسوة لم يتخيلوها قط. انطلق الصراخ المؤلم العنيف للرجال الذين لم يحاولوا المقاومة أو الهرب خوفا من المسدس المصوب نحوهم في تحفز، فضلت المرأتان الصمت مخافة انتقام الرجل الذي يتابع ما يحدث في صمت وبرود وبعينين خلتا من كل أثر للتعاطف، أطلق حازم صيحة صارمة فتوقفا الكلبان في الحال، تطلع إلى الرجال الخمسة في برود، تجاهل الأنين المزعج والدماء التي تسيل من أماكن متفرقة من أجسادهم، سألهم في صرامة مخيفة :

من منكم يعرف أين أجد أشرف البغدادي و كريم الكردي ؟

تبادل الرجال الخمسة النظرات الفزعة فيما بينهم دون أن يجيبوا، حدجهم حازم بنظرة نارية وهو يصيح مهددا:

لو رفضتم الحديث سيكون ما عانيتموه من آلام حتى هذه اللحظة مجرد قطرة في بحر ما ستلاقونه من عذاب في الدقائق التالية.

أسرع أحدهم يقول دون أن يتوقف عن التأوه:

لا أحد منا تمكن من مقابلة أيا منهم من قبل، لكن هذه الفتاة قابلت أشرف البغدادي منذ أسبوعين ماضيين.

التفت حازم حيث يشير الرجل بيد مرتعشة، طالعته فتاة سوداء الشعر مكشوفة الصدر ترتعش في خوف، رشقها بنظرة حادة متسائلة فأسرعتْ تجيب مخافة أن يثير استبطائها غضبه:

لقد ذهبت إليه عندما طلب حضوري في بناية قديمة تقع في بولاق الدكرور منذ أسبوعين.

كانت تلك هي البناية التي شهدت بداية المأساة التي يعيش آثارها حتى الآن، حاول طرد ذكريات مطاردته له عبر الأسطح حتى لحظة القبض عليه ثم فراره من السجن، سألها في صرامة متهدجة:

ألا تعلمين أين ذهب بعد ذلك؟

أجابته في سرعة تغذيها الرعب :

كلا أقسم لك، علمتُ أنه تمت مهاجمته عن طريق قوات الأقبل أن يقع في أيديهم ويلقى في السجن ثم هرب منه بعد ذلك.

سألها في صرامة :

وكيف عرفتِ بأمر هروبه؟

أشارت بأصابع مرتجفة إلى الرجال الخمسة الذين ما يزالوا يتأوهون في ألم، سألهم حازم في صرامة جمدت الدماء في العروق :

كيف عرفتم بأمر هروبه ذاك، وأنصحكم ألا تكذبوا حتى لا تثيروا غضبس فأنا شخص استثار بسرعة.

تطلع أربعة منهم إلى الشخص الخامس الذي أسرع يجيب في ذعر:

علمت ذلك مصادفة من أحد تجار المخدر الجديد.

انعقد حاحبا حازم وهو يسأله :

المخدر الجديد! تقصد الشابو؟

أومأ الرجل برأسه إيجابا مرتعدا، سأله في صرامة:

أملي لي باسمه وعنوانه بسرعة، هيا.

أملاه العنوان في إذعان، سألهم حازم في برود :

هل تتاجرون في هذا المخدر أيضا.

رد أحدهم ينفي عن نفسه هذه التهمة :

كلا أنا مجرد متعاطي، أما هؤلاء فيوزعونه لحساب التجار فقط.

قال حازم في برود :

لا يوجد فارق عندي.

صوب مسدسه نحوهم في لا مبلاة، تجاهل تضرعاتهم واستجدائاتهم وأطلق النار، وانطلق نباح الكلبين مرة أخرى يشق سكون الليل.

****

جلس الرائد محمود في مكتبه يفكر في حيرة في تلك القضية التي عرضت عليه منذ قليل، كان قد بلغه أن أربعة رجال قد نقلوا إلى المستشفى جراء إصابات متعددة، اثنين منهم أصيبا برصاصة في فخذيهما، في حين أصيب الآخران بتمزقات بشعة سببها أنياب ومخالب كلبين من الكلاب المدربة، كانت المعلومات التي وصلته هي أنهم أثناء محاولاتهم الإعتداء على امرأة في شارع مغلق، هاجمهم رجل يصطحب كلبين ضخمين في شراسة، ثم اصطحب المرأة و كلبيه في سيارته السوداء وانطلق بعيدا، لم تكن أقوالهم متضاربة ليشك فيها، لذا ما إن عاد من المستشفى حتى بدأ يفكر في ذلك الأمر، تسائل في تعجب: هل أصبح هناك رجل يسير في الشوارع ليلا و يصطحب كلبين مدربين لإنقاذ النساء من الأشرار؟ الأمر يبدو كما لو كان فيلما من أفلام الأبيض والأسود القديمة، أشعل الرائد سيجارة نفاذة الرائحة و هو يعصر مخه محاولا الوصول إلى تفسير مقنع، من ذلك الرجل الذي يستنفذ وقته و جهده للعب دور البطولة في ظلام الليل؟ هل يريد لعب دور باتمان أم هو مجرد رجل حانق يبغي الإنتقام؟ بدا له التفسير الأخير مقنعا بعض الشيء، لكنه لم يذهب حيرته بالكلية، أخذ ينفث دخان سيجاره في كثافة حتى تكونت سحابة دخان أعلى رأسه، تطلع إلى تلك السحابة بعض الوقت و كأنه ينتظر أن تمطر إجابة مقنعة لسؤاله المحير، رن هاتفه بغتة فاستقبل المكالمة قائلا في لهجة ملولة:

ماذا هناك؟

لم يكد يسمع كلام محدثه حتى هب من مكانه واقفا في انفعال، بلاغ جديد عن هجوم من قبل رجل وكلبيه بعد منتصف الليلة

السابقة بقليل، نشأ عنه إصابات بالغة لخمسة رجال صنعها أنياب كلبين ورصاصات مسدس مالكهما، رصاصات استهدفت كلها الأكتاف والأفخاذ دون أن تتسبب في مقتل أحد منهم، إنه نفس الرجل وكلبيه دون أدنى شك، تطلع إلى سحابة الدخان الكثيفة التي بدأت تمطر في رأسه أفكارا غريبة وخيالات عجيبة، لم يجد بدا من الإتصال برئيسه لإبلاغه بالأمر من جهة، ولجعله يتدخل للحيلولة دون وقوع خسائر جديدة من جهة أخرى، و لم يكن هذا الشخص سوى اللواء زكريا.

****

أنهى اللواء زكريا الإتصال القادم من الرائد محمود ثم راح يفكر في ما سمعه، لم يكن الأمر بحاجة لكثير من الذكاء ليدرك حقيقة الأمر، كل الدلائل تشير إلى الرائد الغاضب الذي استقال منذ عدة أيام، الآن فقط عرف لما أصر على تقديم استقالته على الرغم من أن المنطق يرفض تلك الخطوة الخاطئة، السبب واضح للغاية وهو السعي وراء غريمه دون الإلتزام بقانون يكبل من عملية انتقامه، تبدو نيته الشرسة واضحة وراء استخدام كلبين متوحشين و رصاصات بلا حساب ، ربما استعان بهما لأنه لم يعد يثق في أحد من البشر، وربما يخشى على أصدقائه أيضا الخطر من جراء مساعدته، إنه يعرفه جيدا، لا يقبل من أحد القتال في معركته الخاصة مهما كان وضعه سيئا، شعر بالرغم منه بالحزن والشعور بتأنيب الضمير لرفضه طلب حازم السابق لاستجواب ذلك الحقير، لا يستطيع الفكاك من إحساس قاهر يخنقه كلما تذكر تزمته، إحساس يصل حد الإمتعاض من نفسه، لكنه قاوم إحساسه السلبي بالتفكير في ناحية إيجابية أخرى، ربما يكون حازم مصيبا فيما يفعل، لكن الخطورة تكمن عندما يشرع المرأ في عمل ما

يراه صوابا دون حبل من العقل و المنطق، لو سُمح لكل أحد بالسعي للإنتقام دون التزام بالقانون ستصبح الدنيا مجرد غابة يأكل القوي فيها الضعيف، وليس كل أحد يملك من الحكمة ما يمكنه من التعامل مع الأوضاع التي تستفز لديه مشاعر الغضب والإنتقام و التشفي، يفقد الناس عقولهم بسهولة أمام غرائزهم و رغباتهم، وعلى رأس تلك الغرائز والرغبات مشاعر الإنتقام. كان ينبغي عليه أن لا يسمح لمشاعر السلبية أن تطفوا على السطح، لكنه بدلا من أن يمنعها من أن تطفو غاص فيها حتى القاع، سيبدأ بنفسه التحقيق مع كل المصابين ليلة أمس ليتأكد من صحة استنتاجه، ثم بعد ذلك سيرى الوسيلة المثلى للتعامل مع الوضع الجديد بحكمة، وحنكة، وصرامة.

****

استيقظ حازم عند الساعة التاسعة صباحا، كان مجهود اليوم السابق قد أضناه فعوضه بساعات نوم إضافية، لم يكد يفتح عينيه حتى رأى كلبيه يجلسان أسفل فراشه كأنهما ينتظران استيقاظه، نبحا الكلبين عندما رأوه يعتدل في فراشه جالسا، تطلع إلى لهفتهم في حيرة للحظات ثم خبط جبهته براحته قائلا في ضيق:

يا لغبائي، لقد نسيتُ إطعامهم ليلة أمس، لم أكد أرى الفراش الوثير حتى نسيتُ كل شيء آخر.

ذهب بسرعة إلى المطبخ لإعداد الطعام لكلبيه الذين تبعوه دون أن ينتظرا أن يأذن لهما كالمعتاد، أعد حازم طعامهما في سرعة ثم وضعه لهما فانقضا على الوعاء الكبير يلتهموه في دقائق معدودة، تطلعا إليه مرة أخرى وأحدهما ينبح في قوة طالبا المزيد، أعد لهما وعاءا آخر واكتفى بالنظر لهم وهما يأكلان في نهم، قطع تطلعه إليهم جرس الباب الذي انطلق مرتين متتابعين،

انعقد حاجبا حازم محاولا استنتاج القادم في هذا الوقت المبكر ، لم يتعود استقبال أحد في هذا الوقت ماعدا... قاوم بكل إرادته دموعه من الإنهمار و هو يتذكر حبيبته الراحلة، هي الوحيدة التي كانت تطرق بابه دون موعد سابق، كانت كالحياة، مزيج متناقض من الهدوء و الضوضاء، السكينة والطيش، الغضب والرضا. ذهب مسرعا إلى غرفة نومه فالتقط مسدسه من تحت الوسادة ثم مضى إلى الباب في حذر، لا يدري لما اكتسب كل هذا الحذر بغتة! فتح الباب في بطأ فطالعه وجه اللواء زكريا فانزاح حذره جانبا ولستبدل بالدهشة، سمح له بالدخول ناسيا عبارة الترحيب أو ربما تجاهلها عمدا، لم يكد اللواء يقف في الصالة الواسعة حتى اقتربا منه الكلبين وهما يزومان في شراسة، أشار لهما حازم بالإبتعاد ثم دعاه إلى الجلوس، سأله اللواء دون أن يجلس:

هذان إذن هما الكلبان اللذان تصطحبهما معك أثناء جولاتك الإنتقامية المسائية؟

سأله حازم في هدوء :

هل وصلتك الأخبار بهذه السرعة؟

لا شيء يختفي هذه الأيام طويلا؟

أجابه حازم في قسوة لم يستطع منعها:

وهل تنطبق تلك القاعدة على أشرف البغدادي و كريم الكردي؟

حدجه اللواء بنظرة غاضبة ثم أشاح بوجهه بعيدا، تطلع إلى الشقة في نظرة سريعة ثم سأله :

هل هذه الغرفة هناك هي التي تدير منها عملياتك الليلية؟

تجاهل حازم نبرة التهكم قائلا في هدوء:

لا أحتاج لغرفة عمليات يا سيادة اللواء، كل ما أحتاجه سيارة مصفحة وكلبين مدربين.

تمتم اللواء في دهشة :

سيارة مصفحة! يبدو أنك تريد افتعال معارك حقيقية بالفعل.

سأله حازم في لهجة جمعت بين الحزن و الغضب :

ألا تستحق رقية هذا؟

هز اللواء رأسه إيجابا عدة مرات في استسلام دون أن ينبس ببنت شفة، غلفهم صمت ثقيل لدقيقة كاملة قطعها اللواء :

أنتَ ترى أنني تسببتُ في مقتلها أليس كذلك؟

لم يرد حازم و هو يشيح بوجهه بعيدا، قال اللواء في لهجة حانية:

ما رأيك لو عدتُ لعملك واتحدنا سويا لإسقاط تلك المنظمة عن بكرة أبيها؟

هز حازم رأسه نفيا في حزم قائلا :

وسائلي لن تعجبك أبدا يا سيادة اللواء؟

وسائلك تبدوا بدائية وعنيفة للغاية يا حضرة الرائد.

قال في صرامة غاضبة:

إنهم يستحقون أكثر من ذلك، و لا تنسى أنهم يروجون لمخدر أشد خطورة من كل ما سبقه من أنواع طبيعية وكيميائية.

قال اللواء في سرعة محاولا استغلال عاطفته الجياشة:

عد إلى عملك و سأفعل كل ما أستطيع لمساعدتك في تنفيذ انتقامك، ولكن بما لا ينافي القانون.

هز حازم رأسه نفيا في حدة ثم قال :

هؤلاء القوم لا يصلح معهم تلك الوسائل القانونية التقليدية، فقد فسدت ضمائرهم بعد أن تعرضت لإغتصاب المدمر فأضحوا لا يرون الحق حقا والباطل باطلا.

صاح اللواء في صرامة :

وما الذي يصلح معهم، وسائل باتمان!

قال حازم في لهجة حاسمة لا تقبل النقاش:

لا يصلح معهم إلا القسوة البالغة فقط.

نظر اللواء إلى ساعته ثم أشعل التلفاز قبل أن ينتقل إلى القناة الأولى، ظهر على شاشة التلفاز المذيع و هو ينقل أخبارا عن شهود رأوا شخصا يهجم على بناية سكنية مصطحبا كلبين ضخمين ومطلقا النار بكثافة، أغلق اللواء التلفاز ثم التفت إلى حازم قائلا :

هل رأيت نتيجة أفعالك، ستتسبب في إثارة الرأي العام ضدنا إذا لم تتوقف.

هتف حازم في لا مبالاة :

اعدموني إذا شئتم ولكني لن أتخلى عن انتقامي أبدا.

صمت اللواء قليلا صمت اليائس ثم ذهب إلى المطبخ، تطلع إلى الكلبين الراقدين أرضا ثم التفت إلى حازم قائلا في لهجة صادقة:

دعني أصلحُ ما أفسدته أنا من قبل ليرتاح ضميري يا بني، ولا تجعلني أقف حجر عثرة في سبيل تنفيذ انتقامك.

قال حازم في نبرة قوية :

أنا أوافق شرط أن تنتهج أساليبي، بذلك نستطيع إيقاعهم في أسرع وقت ممكن وتهدأ روح رقية.

قال اللواء في لهجة حاسمة :

قد تبدو الوسائل القانونية بطيئة بعض الشيء، لكنها لا تزال أكثر الوسائل نجاعة وتأثيرا.

صاح حازم في حنق :

تلك الوسائل القانونية هي التي تسببت في مقتل رقية، ولن أسمح لتلك الوسائل بمنعي مجددا من أن أفي بوعدي لها أبدا.

تطلع اللواء إلى ملامح حازم الغاضبة، كان يعلم حجم الغضب الهائل الذي يسبح بحرية داخل نفسه الملتاعة، لكنه لن يستطيع أن يكتف بمشاهدة الشوارع وهي تتحول إلى ساحة معارك بسبب ذلك الإنتقام المتوحش الأعمى، حتى لو كان حازم محقا في حزنه وغضبه لكنه يظل مخطئا بسبب تصرفاته الرعناء، و قد تسبب تلك المعارك إلى احتقان في الشارع لا يستطيع أحد السيطرة عليه، خاصة وأن البلاد ما تزال في وضع غير مستقر بعد أحداث ثورة يناير التي لم تمض عليها أكثر من عام واحد، لذا اتخذ قراره وهو يشعر بالأسف العميق، واجه حازم قائلا في لهجة تقطر حزنا و أسفا :

اعذرني يا بني، سأضطر للوقوف في طريقك مرة أخرى من أجل القانون الذي يضمن للبلد الأمن و الإستقرار .

قال حازم في لهجة هادئة خلت من أي انفعال :

افعل ما يمليه عليك ضميرك يا سيادة اللواء، اخدم القانون كما تشاء، لكن تذكر أن ذلك القانون وضعه أناس لم يتعرضوا لما تعرضتُ إليه، ولو كانوا تعرضوا لنفس الظروف فربما كانوا غيروا فيه ما يتوافق مع الظروف الجديدة.

هز اللواء رأسه متفهما ثم دار على عقبيه و غادر المكان في سرعة.

****

انطلق حازم بسيارته السوداء في هدوء مطمئنا إلى أن ظلام الليل وسكونه سيمكنه من العمل بشكل أفضل، وصل إلى مكان التاجر الذي دله عليه أفراد العصابة في الليلة السابقة. اقترب من المكان في حذر، دلته نظرته الخبيرة على أن هذا المكان عبارة عن مصيدة كبيرة تنتظره أن يدخل لتغلق عليه فكيها الكبرين في عنف، أدرك بحكم خبرته أن المكان يعج برجال الشرطة الذين ينتظرون وقوعه في المصيدة ، مصيدة اللواء زكريا راشد التي تقبع في الخفاء منتظرة سقوطه، تذكر حديثهما الأخير وإخباره بأنه سيضطر للوقوف في وجهه. فانطلق مرة أخرى بسيارته مبتعدا عن المكان قائلا لكلبيه آسفا :

معذرة، لم يتركوا لنا فرصة الليلة للإنقضاض على الأوغاد وتحطيم عالمهم القذر.

في داخله كانت مشاعره المضطرمة تزداد اضطراما، و انفعالاته الحادة تزداد عنفا، لكنه واجه أعماقه المشتعلة ببرود أشبه بالصقيع، لن يترك نفسه فريسة لغضبه و حنقه، ولن يلعب دور الطريدة بدلا من الصياد، الأيام القادمة تعتمد على هدوء أعصابه واتزان قراراته، الحكمة تقتضي ذلك، لم يكن من الصعوبة استنتاج كيفية معرفة اللواء بهدفه التالي عن طريق استجواب ضحاياه السابقين، لكن السؤال الذي راوده بشدة؛ ماذا كان سيصبح رد فعل اللواء لو سقط في يديه؟ كانت الإجابة بالنسبة إليه عسيرة للغاية، بالرغم منه لم يستطع عقله تخيل تلك الصورة التي رأى فيها اللواء يلقي القبض عليه ثم يضع في يديه الأغلال و يلقيه في السجن بدلا من المجرمين، ثم يتخلص من كلبيه المخلصين بوسيلة قاسية. أزاح تلك الصورة من مخيلته بعيدا في غيظ، كان يعلم أنه ليس من المستبعد أن يفعل اللواء ذلك، تجربته الشخصية الطويلة معه تؤكد ذلك، كان دائما يشعر بالحنق تجاه الأشخاص الذين يطبقون القانون دون التفات إلى الظروف والتداعيات، يراهم دائما بصورة قاتمة باردة خالية من المشاعر، إنه لا يساند بأي حال الخروج على القانون في الظروف العادية، ولكن هناك بعض الأحوال التي تدفع صاحبها دفعا للخروج عن تلك الدائرة المحرمة التي وضعها أناس يحملون شهادات رفيعة في مجال القانون، ينبغي أن يدرس القانون علم النفس أيضا حتى يصلوا إلى قوانين عادلة تتيح للجميع العيش في بيئة تحقق القدر الأكبر من العدالة الحقيقية. لكن تلك الأفكار بدت له كمن يتمنى إمساك النجوم بيديه. ضغط دواسة الوقود لتنطلق السيارة عبر الشوارع الخالية في تلك الساعة المتأخرة من ليالي الشتاء الباردة.

****

هتف اللواء عبر هاتفه في حنق:

كيف شعر بكم بالرغم من خبرتكم الكبيرة في التمركز السليم؟

تمتم الرائد محمود في حيرة :

لا أعرف يا سيادة اللواء، الأمر يبدو كما لو كان ساحرا يرى من خلال الغيب.

أجابه اللواء في غلظة :

لا يوجد سحرة يعلمون الغيب يا رجل، الله وحده يعلم غيب السموات والأرض.

سأله الرائد في حيرة:

وكيف علم بأمر تواجدنا إذن؟

الخبرة يارجل، تلك المدة التي قضاها في جهاز شرطة مكافحة المخدرات و هبته ميزة فريدة، و هي الإحساس بالخطر عبر الإمساك بخيوط خفية لا يدركها أغلب الناس.

تسائل مساعده في قلق :

وما الخطوة التالية يا سيدي.

صمت اللواء بعض الوقت ثم قال في يأس:

لا شيء، لقد أضعتم فرصة ثمينة في القبض عليه متلبسا، سننتظر حتى يقع في خطأ آخر و أتمنى أن يكون ذلك في وقت قريب.

سأله مساعده في حذر بالغ :

اسمح لي يا سيدي أن أسألك سؤالا لم يبارح ذهني لحظة واحدة، ما الخطوة التي كنت ستتخذها في حالة القبض عليه متلبسا بفعلته؟

أجابه اللواء في صرامة حازمة :

الخطوة الطبيعية يا رجل، سيقبض عليه ثم يعرض على النيابة للبت في شأنه، وعنئذ تكون مهمتنا قد انتهت.

سأله مساعده في سرعة و دون وعي :

هل هذا ما سيحدث حقا يا سيادة اللواء؟

لم يكد ينطق عبارته حتى هاجمه الندم بقسوة، لم يمهله اللواء لإظهار أسفه، فصاح في صرامة غاضبة:

وما الذي كنتَ تظنني فاعله، أربت على كتفيه ثم أقول في حنان أبوي: لا تعد إلى فعلتك هذه يا عزيزي حازم حتى لا ألسعك بالنار؟

أجابه مساعده في سرعة و حرج :

كلا بالطبع ياسيدي، ما أردت قوله هو أنه كان أحد أفضل رجالك في الجهاز كله، وكان على وشك الحصول على ترقية استثنائية جديدة بالرغم من سنه الذي لم يتعدى الخامسة و الثلاثون، فكنت أظن أنك سوف تتخطى تلك الهفوة منه خاصة أنه لم يخرج بعد من حالته النفسية السيئة.

التقط اللواء نفسا عميقا قبل أن يخرجه على هيئة نبرة حادة حازمة:

عمله معنا في السابق وكونه أحد أفضل رجالنا لا يعني أن نتجاهل تعديه على القانون، بل على العكس من ذلك ينبغي أن يعاقب على أفعاله أشد من غيره لتاريخه في محاربة الخارجين عن القانون، وبالنسبة لحالته النفسية السيئة فهو قد تدرب من قبل على التعامل مع مشاعره وانفعالاته مهما عانى و قاسى، لكنه ألقى بكل ذلك عرض الحائط وسار في طريقه غير مباليا بأي شيء آخر، لذا ستتم معاملته معاملة صارمة لا رقة فيها، مفهوم؟

أجابه مساعده في سرعة :

مفهوم يا سيادة اللواء، مفهوم.

أنهى اللواء الإتصال و هو يفكر في ما قاله آنفا، بالرغم منه تسائل في حيرة : هل يعني بالفعل كل ما قاله أم أنه سيتقاعس عن التعامل مع حازم بصرامة كافية عندما تتم المواجهة بينهما؟ وكان الجواب صعبا للغاية.

****

علم حازم من خلال رأفت أن ذلك التاجر الذي ذهب لاستجوابه في الليلة السابقة، والذي استغله اللواء لعمل مصيدة له، قد أودع في السجن تمهيدا لعرضه على النيابة، كان ذلك التاجر بالنسبة إليه هو طرف الخيط الوحيد الذي سيوصله لعدوه اللدود، لذا كان لزاما عليه الوصول إلى ذلك التاجر مهما كانت العقبات، ولكن كيف؟ هذا السؤال هو ما كان يلح عليه بشدة أثناء الثلاثة أيام السابقة، لكنه بالرغم من انشغاله بالبحث عن طريقة تمكنه من الوصول لذلك الرجل، لم يدع تلك الأيام تمر دون فائدة، كان يخرج مع كلبيه كل ليلة ليتفقد الأمن في الشوارع خاصة المظلمة منها، واستطاع إنقاذ سيدتين من الإغتصاب، و إنقاذ فتاة من

الإختطاف، وتخليص طفل مختطف من قبل عصابة طلبت فدية مقابل إعادته إلى أهله سالما. كان يشعر بالراحة لعمله الخفي في إنقاذ الضحايا الأبرياء من العصابات التي طفحت بهم الشوارع ليلا و نهارا، تمنى في أعماق نفسه تشكيل مجموعة من خيرة الشباب وتدريبهم تدريبات خاصة ليصبحوا جاهزين للقيام بالمهمة الأكثر نبلا على الإطلاق، إنقاذ الأبرياء الذين يتعرضون للخطر أثناء الليل وعلى رأسهم النساء اللاتي يتعرضن للعنف الجنسي. كاد يخرج في الليلة الرابعة لممارسة مهمته الليلية المقدسة لولا جاءه ذلك الإتصال المباغت و صاحبه يقول في سخرية و تهكم :

كيف حالك أيها الرائد الهمام، أقصد سابقا بالطبع.

لم يكن ذلك الصوت ليغيب عن ذهنه و لو بعد ألف عام، فهو يمثل له كل ما يحمله العالم من شرور و آثام و حقارة وقهر وظلم ، هب واقفا في انفعال حاد، بح صوته و هو يهتف ساخطا:

أين أنت؟

أطلق أشرف ضحكة مجلجلة ممطوطة قبل أن يتغلب على مشاعره الساخرة قائلا :

يبدو أنك لم تفقد طابع المزاح يا حازم باشا، أما يكفيك ما سببته لي من ضحك وأنت تبحث عني مع كلبيك كالمجنون؟

حاول حازم كبت غضبه الشديد و انفعالاته الجامحة، عجز عن هزيمة فضوله فقال :

أراهن أنك ترتعد خوفا من نجاحي في الوصول إلى مكانك الذي تختبأ فيه كالفأر الحقير، لا تنسى أنني صرتُ وحيدا دون معين.

قال أشرف :

نسيتَ كلبيك الشرسين يا عزيزي .

هل تخشى منهما أيها الحقير.

قال أشرف في لهجة من يلقي اعترافا:

لا أستطيع أن أخفي عنك خوفي الغريزي من الكلاب منذ تعرضتُ لهجوم شرس شنه علي أحدهم عندما كنتُ صغيرا.

قال حازم في احتقار :

الذئاب تخشى الكلاب دائما أيها الوغد.

عاد حازم لتهكمه و هو يقول :

أنت تدللني بوصفي بالذئب، أنا مجرد إنسان مسكين أسعى لأطعام أسرتي.

وهل تعلم أسرتك حقيقة عملك؟

أجابت لامباليا :

أسرتي لا يهمها كيف اكسب المال، المهم عندها أن يكون متوفرا.

شعر حازم بالحنق من إستمرار أسلوبه الساخر فسأل في صرامة:

لم تخبرني بعد ما الدافع وراء اتصالك بي، هل هي السخرية فقط أم هناك سبب آخر؟

صمت أشرف قليلا ثم قال في جدية مباغتة:

في الحقيقة أشعر بالملل يقتل نفسي في بطأ، أنت الوحيد الذي شعرتُ معه بالحماس نتيجة التنافس المحموم بيننا.

سأله حازم مخفيا حنقه :

هل اتصلت بي فقط لتقتل شعورك بالملل.

لا ليس من أجل ذلك فقط.

اضطر حازم أن يجاريه للنهاية فسأله مبديا الإهتمام :

وما هو السبب الآخر يا هذا؟

قال أشرف في حماس :

سأشعل منافسة محمومة أخرى بيننا، و ستكون المنافسة كالتالي، هذا التاجر الذي تسعى خلفه سيعرض غدا على النيابة لسماع أقواله، وأصارحك القول إنه يعرف عني الكثير من المعلومات التي ستفيدك في العثور علي لو حصلتَ عيها.

سأله حازم في حذر تعاظم داخله :

وما هو المطلوب بالضبط؟

ستكون المنافسة بيننا علي أي منا يستطيع الوصول إليه قبل الآخر، فإما أن أقتله لأدفن معه أسراي إلى الأبد، و إما أن تصل إليه أنت أولا، وساعتها...

لم يكمل عبارته وهو يطلق ضحكة عالية مستفزة قبل أن يغلق هاتفه للأبد.

****

لم يكد ينتهي الإتصال حتى شرع حازم في إجراء اتصال عاجلا، لم تمض لحظات حتى أجابه رأفت في قلق:

ماذا هناك يا حازم ؟

سأله في سرعة وولهفة:

هل سيعرض تاجر المخدرات فريد الشاندويلي على النيابة غدا.

قال في دهشة :

نعم، لم ذلك الإهتمام بذلك التاجر بالتحديد.

أجابه حازم:

نسيتُ أن أخبرك أنه الخيط الوحيد للوصول إلى ذلك الحقير، أشرف.

وكيف علمت بأمر عرضه على النيابة غدا؟

قال حازم في ضيق :

لا يهم الآن كيف عرفت، أريدك أن تبلغني بكافة التفاصيل المتعلقة بنقله، ميعاد نقله، و الحرس المرافقين له، وعددهم، كل شيء.

سأله رأفت في حذر و قلق بالغين :

هل تنوي اختطاف؟

قال في هدوء عجيب:

وهل هناك وسيلة أخرى للحصول على المعلومات من ذلك الوغد؟

صاح رأفت في انفعال :

حازم، إياك أن تقدم على تلك الخطوة الخطيرة مهما كانت الضرورة ملحة، لا تحكم على نفسك بالإعدام يارجل.

لا تهتم يا صديقي، أنا أدرك خطورة ما أنا مقدم عليه جيدا، ما أريدك أن تهتم به فقط تلك المعلومات التي طلبتها منك.

صاح رأفت في إشفاق:

لن أساعدك في قتل نفسك، بل سأقف في طريقك لو اضطررت لأحميك من شر نفسك.

صاح حازم بنبرة غاضبة:

لا تكرر ما قاله اللواء، أنت تعرف أنني لن أتراجع عن تلك الخطوة أبدا حتى لو رفضتَ مساعدتي.

كاد رأفت يجيبه لولا أن أغلق حازم الهاتف ليمنعه من الإستطراد، و في داخله كان هناك صارخا يحذره من محاولة مساعدة صديقه المتهور.

****

لم يستطع حازم الخروج تلك الليلة بعد أن شغل تفكيره بشدة كيفية الوصول إلى ذلك التاجر، لن يرتاح قبل أن يحقق انتقامه من أجل حبيبته الراحلة، بكى قلبه بشدة في هذه اللحظة وهو يتذكر ابتسامتها الرقيقة وضحكتها التي كانت تهز وجدانه هزا. ذهب لإطعام كلبيه الجائعين حتى لا ينساهما كما فعل سابقا، لكنه في الحقيقة كان يهرب من شبح ذكرياته التي تهصر قلبه بقسوة، انشغل بإعداد الطعام حتى لاح له ذلك الخطر الذي يمثله أشرف وتحديه الصارخ له، يبدو ذلك الشخص مصاب بجنون العظمة، لكنه سيستغل ذلك لصالحه بذكائه المعهود، سيكون السبّاق هذه المرة و سيحصل على تلك المعلومات التي ستمكنه من صنع النهاية التي يريدها. وضع الطعام أرضا ثم ذهب إلى الفراش ليريح جسده المنهك حتى يصبح مستعدا تماما لتنفيذ المهمة في الصباح الباكر. مرت عدة ساعات قبل أن يستيقظ على صوت هاتفه الذي أخذ يرن في إلحاح، ما إن ألقى نظرة على هوية المتصل حتى انتفض جالسا قائلا في لهفة :

هات ما عندك يا رأفت.

قال رأفت في تردد :

حازم أنا لا أريد أن أزج بك في أخطار لا تستطيع أن ...

قاطعه حازم في عصبية و لهفة

هات ما عندك يا رأفت، أرجوك.

أخبره رأفت كل ما يعرفه عن عملية نقل ذلك التاجر وأوصافه و وقت خروجها و عدد الحراس اللذين سيصطحبوهما، استوعبها عقل حازم تلك المعلومات في سهولة، أغلق الهاتف بعد أن شكر صديقه في حرارة، هب من فراشه في نشاط ثم اتجه إلى الحمام لأخذ دش بارد ثم ارتدي حُلة سوداء، اتجه إلى أحد أدراج مكتبه ثم ضغط زرا جانبيا فانفتح في بطأ كاشفا عن مسدس و كاتم للصوت و قناع وجه ذو ملامح أجنبية، وضع الأشياء الثلاثة في جيوبه ثم أغلق الدرج في حرص مرة أخرى، أعد الطعام لكلبيه الذين يرقدان في أرضية المطبخ يلهثان كأن تلك الرقدة تسبب لهم إجهادا هائلا، قال:

كنتُ أتمنى أن تكونوا معي في هذه المهمة لكن للأسف ليس لديكم دور فيها.

قال عبارته ثم أغلق باب المطبخ خلفه، غادر شقته في سرعة استعدادا لتنفيذ المهمة التي حوّلها غريمه إلى منافسة شرسة بينهما، تاركا الكلبين خلفه يزومان في سخط وغضب لعدم إشراكهم في القتال القادم.

****

كانت خطة حازم بسيطة ومباشرة، حيثُ اعتمد على المعلومات التي استقاها من صديقه لنزع تاجر المخدرات من بين أيدي رجال الأمن، ثم إجباره على البوح بكل مالديه اتجاه أشرف والمنظمة التي ينتمي إليها، داخله شعور بالخطر إزاء المنافسة التي أجراها مع غريمه، إنه يعترف أن عدوه ذئب داهية وأن من العسير استنتاج خطوته التالية، لكنه سيتخذ حذره جيدا حتى لا يسقط في خطأ قد يكلفه الكثير. استقل سيارته بعد أن نزع منها لوحة أرقامها حتى لا يستدل عليها دون أن يهتم بوضع لوحة أخرى بدلا منها، توقف بسيارته في طريق جانبي، انتظر مرور سيارة الترحيلات في صمت وصبر. مضت عشر دقائق حتى ظهرت سيارة الترحيلات تتبعها سيارة شرطة لتأمينها، و هنا انتفض جسد حازم في نشاط مباغت فأسرع يرتدي قناعه ذو الملامح الأجنبية، أضاف كاتم الصوت إلى مسدسه ثم انطلق متتبعا سيارة الشرطة في حذر، انتظر حتى أصبح الطريق خاليا إلا من السيارتين، ثم اقترب من سيارة الشرطة في سرعة قبل أن يخرج مسدسه المزود بكاتم للصوت و يصوبه إلى الإطار الخلفي و يطلق النار، عجز السائق عن التحكم في عجلة القيادة ففقدت السيارة توازنها وخرجت عن الطريق الرئيسى ثم اصطدمت بشجرة كبيرة في عنف قبل أن تتوقف في صمت، اقترب مرة أخرى من سيارة الترحيلات في سرعة لكنه بوغت بسيارة دفع رباعي تقطع عليه الطريق ثم تصطدم به في حدة، انحرفت السيارة السوداء عن الطريق جراء الإصطدام العنيف، حاول حازم التحكم بعجلة القيادة بكل قوته ومهاراته قبل أن يتمكن في النهاية من السيطرة عليها و العودة بها مرة أخرى إلى الطريق الرئيسي، ضغط على دواسة الوقود مستهدفا السيارة القوية، أطلق عدة رصاصات على إطاراتها فانحرفت في حدة ثم انقلبت على جانبها

الأيمن وزحفت عدة أمتار، خلتْ الساحة له تماما فاقترب من سيارة الترحيلات التي حاول سائقها الهرب من السيارة السوداء العنيدة من خلال زيادة سرعتها للحد الأقصى والمناورة بها يمينا و يسارا، كان التصويب على إطارات السيارة الكبيرة وهي تنطلق بتلك السرعة مخاطرة كبيرة، وقد يخسر حياة تاجر المخدرات فيخسر مصدر المعلومات الوحيد للأبد، بدلا من ذلك صوب سلاحه على مزلاجها الكبير ثم أطلق رصاصة حطمته على الفور، انفتح الباب في عنف ليباغته الحارسين الذين في الداخل وهما يفتحان النار عليه دون هوادة، أصابت رصاصاتهما زجاج السيارة دون أن تنجح في اختراقه، كانت مفاجأة كبيرة للحارسين الذين نفذت رصاصاتهما دون فائدة، تجاهلهما حازم و هو يشير إلى رجل بعينه أن يقترب بعد أن عرفه من خلال أوصافه التي أخبره بها صديقه، سار حازم بمحاذاة سيارة الترحيلات ثم أشار بمسدسه في صرامة للسائق أن يتوقف أو يبطأ من سيارته، لكن السائق أشار إليه بالنفي في حزم و هو يواصل مناورته الجريئة بالسيارة الضخمة، تراجع حازم إلى خلف سيارة الترحيلات ثم أشار إلى التاجر أن يقترب من سيارته، تردد الرجل للحظات ثم استجمع شجاعته واقترب منها في حذر، كانت الحركة خطيرة وتحتاج لتدريبات معقدة طويلة للقيام بها، لكنه لم يجد بدا من القيام بالمحاولة بالرغم من انتحاريتها، اقترب حازم بسيارته حتى كاد يلتصق بسيارة الترحيلات ليسهل على الرجل القفز نحو سيارته، لكن السائق العنيد أعاد المناورة من جديد ففشلت محاولة القفز إلى حين، اقترب حازم من السيارة من جديد وهو يحاول موائمة السيارة التي يحاور بها سائقها العنيد و يناور ليصعب من مهمته، لكن ما إن اقترب بسيارته مرة أخرى حتى قفز التاجر بجرأة يُحسد عليها نحو سيارة حازم ثم يحاول التعلق بسقفها المصقول

في صعوبة، أبطأ حازم من سرعة سيارته في حذر حتى لا يتسبب في سقوطه أرضا و قتله في الحال، أخيرا توقفت السيارة بعد أن تمت المهمة بالنجاح، خرج حازم من سيارته ليلقي نظرة على الرجل المتشبث بسقفها كالرجل العنكبوت، كان يتسائل في دهشة كيف أقدم هذا الرجل على القفز بجرأة من سيارة الترحيلات، وكيف استطاع التشبث بسقف سيارته على الرغم من صعوبة القيام لذلك، ولكن دهشته استحالت لذهول عندما أظهر له الرجل يديه التي ترتديان قفاز لاصق، و تضاعفت دهشته بلا حدود.

****

أرجأ حازم كل الأسئلة الحبيسة في صدره حتى يعود بصيده إلى منزله، ما إن جلس تاجر المخدرات بين يديه حتى سأله حازم في صرامة:

كيف استطعت القفز على سقف سيارتي بتلك الجرأة ومن أين أحضرت ذلك القفاز اللاصق؟

ابتسم الرجل في ثقة قائلا :

لقد جائتني الأوامر الصارمة بتسهيل مهمتك قدر المستطاع.

بدا القلق على وجه حازم وهو يسأله :

ومن أعطاك هذه الأوامر الصارمة ؟

ابتسم الرجل ابتسامة غير مريحة وقال :

أشرف البغدادي بنفسه.

هتف حازم في اعتراض:

كلامك غير معقول!

هز الرجل كتفيه قائلا في بساطة كأنه يصف أمرا عاديا:

هو الذي أخبرني بأن أسهل لصاحب السيارة السوداء مهمته.

سأله حازم في حذر :

هو يقصد بالتأكيد السيارة السوداء ذات الدفع الرباعي.

هز الرجل رأسه نفيا ثم قال:

كلا، لقد وصف لي سيارتك بالتفصيل وأخبرني أنك قادم لمساعدتي في الهروب، لذا قفزت من سيارة الترحيلات نحو سقف سيارتك دون تردد.

فاق ذهول حازم كل حد ومد، لم يستطع ذهنه الحاد استيعاب ذلك الأمر، قطع حيرته رنين هاتفه، أخرجه من جيبه ثم قال عبره دون أن ينظر لشاشته:

كنتُ أظنك ستفعل المستحيل للحيلولة دون وضع يدي على هذا الوغد، لكنك بدلا من ذلك أمرته بمعاونتي، لماذا؟

تنهد أشرف تنهيدة طويلة ثم قال في صوت متناوم :

ياعزيزي حازم لقد أخبرتك سابقا أنني أشعر بالملل الشديد، وأبحث عن وسيلة مثيرة لإخراجي من دائرة الملل هذه.

سأله حازم في حيرة زادت من عصبيته :

ولكن لماذا سهلت لي أمر القبض عليه و هو يعد مصدر المعلومات الوحيد للوصول إليك.

أطلق أشرف ضحكة عالية آذت أذن حازم قبل أن يقول في لهجة بالغة السخرية:

و ما علاقة التاجر الذي تبحث عنه بالرجل الذي يجلس عندك أيها الذكي؟

التفت حازم بأقصى سرعة إلى حيث يجلس الرجل، لكن رأسه تلقت ضربة قوية أفقدته وعيه على الفور.

****

استيقظ حازم ليجد نفسه راقدا على أريكة كبيرة، ويجلس أمامه مباشرة الرائد السابق كريم و أشرف البغدادي والرجال الثلاثة، كان الجميع يحدق فيه بسخرية و تهكم وتشفي دون أن ينبس أحدهم ببنت شفة، توقع حازم أن يجد نفسه مقيدا، لكن يبدو أن المفاجئات التي أعدها له غريمه لم تنتهي بعد، اعتدل جالسا و هو يتحسس موضع الإصابة في رأسه، ظل الجميع يتطلعون إليه في صمت مستفز، التقت عيناه بعيني الرجل الذي خدعه وأفقده الوعي فقال الأخير ساخرا :

لقد ارتكبت خطئا بالغا يارجل عندما حبست كلبيك في المطبخ.

تجاهله حازم و هو يتطلع إلي وجه الرائد كريم قائلا في لهجة احتقار واضحة :

بعتَ دينك وقيمك ومبادئك بثمن بخس، أخبرني ماهو الثمن الذي قبضته لتلقي كل ذلك خلف ظهرك؟

مط كريم شفتيه ثم مد يديه عن آخرهما قائلا في سخرية:

الكثير يا عزيزي حازم، يكفي أنني لا أعجز عن الحصول على شيء من متع الدنيا.

قال حازم في صرامة :

الدنيا ستنتهي يوما ما وسيأتي الموت بغتة.

دعه يأتي يا عزيزي في أي وقت يشائه، المهم أن أعيش حياتي كما أشاء.

حدجه حازم بنظرة احتقار و قرف قائلا :

الخلايا السرطانية لابد أن تموت قبل أن تتسبب في موت المجتمع بكامله.

ثم التفت إلى أشرف يرمقه في نظرة امتلأت بالتحدي والغضب، بادله الآخر بنظرة تهكم واستخفاف دفعت الأول للوقوف غاضبا، كاد يهجم عليه لولا أن صوب إليه أحد الرجال الثلاثة سلاحه في صرامة، وجد من الحكمة أن يتحكم في أعصابه الثائرة حتى يجد الفرصة للتغلب عليهم، لم يكن في واقع الأمر يشعر بالغضب فقط، كان الشعور بالراحة للوصول إليهم يكاد يفوق غضبه بمراحل حتى لو كان موقفه سيئا وضعيفا، يكفي أن القدر أتاح له الفرصة ليجتمع بهم كلهم في مكان واحد، سيتسبب غرورهم في مقتلهم في النهاية، هو على يقين من ذلك، تطلع حازم إلى أشرف قائلا :

وأنت، ماهو الثمن الذي حصلتَ عليه لتبيع وطنك؟

قال أشرف في هدوء يخفي بركانا مشتعلا:

قبل أن أنضم إلى تلك المنظمة كنتُ قد اتخذتُ قرارا بالإنتحار هربا من الفقر و الفشل، لا أحد يستطيع العيش مع فقر يحول الحياة إلى دائرة من الممنوعات لا يستطيع الإقتراب منها، كان ينبغي أن أعيش على القليل الذي يسد رمقي ورمق أسرتي بالكاد، وصدقني حتى هذا كنتُ أعجز عنه أحيانا، والفشل الذي حول حياتي لجحيم من العيون الساخرة المتهكمة التي تصلاني بنارها كلما صادفتُ

أحدهم قدرآ، ثم منحني القدر فرصة نادرة لاعتلاء سلم القوة والثروة، بل والتحكم في عنق مجتمع جاحد قاس لا يرحم، ماذا تفعل لو كنت مكاني، هل كنتَ ستترك تلك الفرصة النادرة و تنتحر؟

هز حازم رأسه نفيا قائلا في سخرية:

يصعب الإجابة على هذا السؤال بالذات لأنني لم أكن لأسمح لنفسي بالفشل أبدا.

صمت أشرف لحظات و هو يحاول السيطرة على أعصابه الثائرة، هب قائما ثم قال في استخفاف:

أعلم شعورك في هذه اللحظة، و أدرك كم الغضب الذي يتلظى داخلك، لكن هكذا الدنيا دائما، البقاء فيها للأقوى والأذكى، ولابد أن تعترف بذلك أيها الرائد سابقا، فأنا من خططتُ لكل شيء منذ البداية.

ظل حازم صامتا و هو يتطلع إلى ما حوله في تركيز، كان يدرس في ذهنه كيفية التغلب على الرجال الخمسة دون أن يخسر حياته، كان يهمه البقاء على قيد الحياة ليشهد اللحظات الأخيرة في حياة أحقر مخلوق قابله في حياته، لكنه يشعر بالعجز لتنفيذ تلك الخطوة بالذات، فهو واحد مقابل خمسة، وأحدهم يصوب نحوه سلاح جاهز للإطلاق بالفعل، لاريب أن كلهم مسلحون، تسائل في مرارة: هل ستكون النهاية سيئة لهذه الدرجة؟ هل سيعجز عن الإنتقام لحبيبته الراحلة؟ هل سيخلف وعده لها بعد أن وعدها أمام قبرها وأقسم لها بأغلظ الأيمان أن ينتقم ممن قتلها؟ بكى قلبه بحرقة، تملكه إحساس بالتمرد على وضعه المتردي، فكر أن يهجم عليهم بكل ما يملك من قوة وسرعة وشراسة وغضب، و

لن يهمه النتيجة بعد ذلك، فالحياة بعد حبيبته لم تعد لها قيمة، بل صارت عبارة عن كتلة من الحزن واليأس والمرارة أحالت حياته إلى جحيم، فلماذا التمسك بها إذن؟ الحياة هناك بجوار حبيبته هي ما يتمناه بشدة، التقط نفسا عميقا، تطلع إلى العيون المحدقة فيه في استخفاف وتشفي، صاح في صرامة :

على بركة الله.

ثم هب قائما وفي نيته الإنقضاض عليهم في هجمة أخيرة، وحاسمة.

****

استعد حازم للإنقضاض في هجمة عنترية بالرغم من استحالة الفوز من الناحية المنطقية، فهو يدرك يقينا أنهم لن يتركونه حيا بعد أن أحضروه لمكانهم السري وواجهوه وجها لوجه، لذا لم يعد هناك فارق، يكفيه أن يموت وهو يحاول، كاد يهجم و استعد الآخرون لذلك لولا أن سمع صوتا أثلج صدره، صوت رصاص اقتحم المكان في عنف يمتزج بصيحات الرجال المذعورة الذاهلة في الأسفل، كان الأمر أشبه بالمعجزة، توتر الموقف في شدة والرجال الخمسة يتلفتون حولهم في خوف، صاح كريم في أشرف غاضبا :

أنت أيها الحقير من تسببتَ في هذا، إصرارك على التلاعب بحازم سيودي بنا إلى التهلكة.

تجاهل أشرف صياحه الغاضب وسأل حازم :

كيف فعلت ذلك؟

هز حازم كتفيه في لا مبالاة قائلا في سخرية:

أنا أشعر بالدهشة مثلك تماما يا عزيزي أشرف.

منعه توتره من أن يبادله بسخرية مماثلة، صاح كريم في توتر عنيف:

فليستعد الجميع، لن نسمح لهم بالتغلب علينا، نحن ننتمي لمنظمة قوية.

لم يشأ حازم التدخل، أراد الإنتظار حتى تسنح له الفرصة لذلك، اقتربت الأقدام و الرصاصات من مكانهم في سرعة، صوب أشرف مسدسه في وجه حازم قائلا في صرامة :

إنهم قدموا لانتشالك من بين أيدينا و لن أسمح لهم بذلك إلا على جثتي.

ظل حازم هادئا كأنه ليس المستهدف من ذلك السلاح القاتل، في حين كان كريم والرجال الثلاثة يتخذون من المقاعد ستارا لحمايتهم من الرصاص، بغتة انطلقت رصاصة حطمت رتاج الباب في عنف فانفتح على مصراعيه في حدة، تبادل كريم وجماعته الرصاص مع من يحاولون الإقتحام من الخارج، في حين ظل أشرف يصوب مسدسه في وجه حازم كأنه لا يعنيه شيء آخر، حتى حياته، بالرغم من دهشة حازم لاستهانة أشرف بالموت على أن تركه يرحل، إلا أنه كان يتسائل في نفس الوقت عن كيفية معرفة مكانه بهذه السرعة، كانت الرصاصات تنطلق من الجهتين في عنف دون أن تسفر عن وقوع ضحايا من الجانبين، وكان لابد من التدخل لحسم الأمر لصالح فريقه، لكن ذلك الوغد مازال يصوب سلاحه في وجهه في تحفز وتركيز، استغل التفاتة سريعة من غريمه إلى رفاقه فانقض عليه انقضاضة سريعة فطوح بمسدسه بعيدا، زمجر أشرف في غضب قبل أن يقرر الدخل في

عراك دامي مع غريمه، لم يتوانى أحد منهم في محاولة إصابة الآخر بركلات قاسية و لكمات عنيفة دامية، كان القتال بينهم متقارب لحد كبير، لكن حازم كان يفوقه خبرة، ولم يعد يشتكي من إصابة ذراعه كما حدث في قتاله السابق، لذا استطاع ركل غريمه في وجهه ليسقطه على ظهره في عنف، في تلك الأثناء كان مسدس كريم قد نفذ من الرصاص فاختبأ خلف أريكة كبيرة، وجدها حازم فرصة لينقض عليه ويلتحم معه في قتال عنيف آخر، لكن الرصاص المنهمر أجبر المتصارعين على الإختباء مرة أخرى للنجاة بحياتهم، تبقى مسدس واحد مع أحد الرجال الثلاثة مازال يطلق منه الرصاص، في أثناء إنشغاله بمراقبة اطلاق النار الدائر سمع صوتا يقول محنقا :

نسيتني يا سيادة الرائد وهذا عيب خطير.

التفت حازم بكل سرعته و توتره فطالعه وجه أشرف الغاضب وسبابته المتحفزة على الزناد لإطلاق الرصاص دون تردد، أيقن حازم أنها النهاية هذه المرة، فغريمه سيسعده كثيرا أن يلحقه بحبيبته في الدار الآخرة، مد أشرف يده عن آخرها و هو يقول في شماتة :

هيا استعد لتلحق بحبيبتك الميتة.

لم يكد ينطقها حتى شق الهواء صوت رصاصة انطلقت كالبرق ثم ارتطمت برأسه من الخلف قبل أن تعبر من جبهته مخلفة بقعة حمراء قانية، تخشب جسد أشرف لثواني وجحظت عيناه عن آخرهما في ذهول وهو يرى نيران الجحيم المشتعلة من مكانه قبل أن يسقط على وجهه و يتحطم، تطلع حازم إلى الرجل الذي يمسك بمسدسه في سعادة، ثم قال في هدوء يخفي ارتياحا كبيرا:

رأفت! لقد لعبتَ دور ملاكي الحارس بجدارة.

أدار رأفت مسدسه ناحية كريم الذي وقف رافعا يديه في صمت وذلة، دخل ثلاثة من رجال الشرطة أدوا التحية لحازم ورأفت قبل أن يفحصوا أجساد رجال المنظمة ليتأكدوا بعدها من لحاقهم بالرفيق الأدنى، خاطب رأفت كريم قائلا في شماتة صارمة:

كنت تحسب نفسك منيعا من السقوط، و أن منظمتك ستسعى لحمايتك بشتى الطرق، لكنك سقطت في النهاية كالفأر الحقير .

لم يتكلم كريم وإن بدا على وجهه آيات الندم، اقترب منه أحد رجال الشرطة ليضع يديه خلفه في القيد الحديدي، قال كريم متوعدا :

سيأتي رجال المنظمة ليخرجوني من السجن كالشعرة من العجين.

قال رأفت ساخرا :

لا لن يحدث هذا حتى لو اضطررتُ لإلحاقك بصديقك الخائن.

تطلع كريم إلى جثة أشرف جاحظة العينين في دهشة وألم، ثم صاح في احتقار :

لقد كان هذا الشاب ساذجا بامتياز، لكني أختلف معه، فأنا لا تدفعني انفعالاتي و لا ترهبني أساليبكم التي أحفظها عن ظهر قلب، و لن أتفوه بكلمة مادمتُ ل أريد هذا، وصدقوني سيأتي أصدقائي ليخلصوني في أقرب وقت وسينتقموا منكم ومن المجتمع كله في...

لم يكمل عبارته لسبب منطقي للغاية، كان هذا السبب عبارة عن رصاصة انطلقت من فوهة مسدس رأفت لتعبر مقدمة رأسه في يسر ونعومة ثم تخرج من الناحية الأخرى دافعة جسده إلى الخلف

ليسقط أرضا في عنف مدوي، تطلع حازم إلى رأفت في دهشة مسائلة، لم يتركه صديقه لتسائله طويلا فقال في صرامة :

كنتَ محقا يا صديقي عندما أبلغتني في السابق أن الأساليب القانونية لا تكفي وحدها لردع الفجرة والخونة الذين سمحوا لشهوتهم و أطماعهم باغتصاب ضمائرهم و مبادئهم، و أن الأساليب غيرُ القانونية نحتاجها أحيانا لحسم العديد من الأمور.

ابتسم حازم في صمت، بادله رأفت ابتسامة مماثلة، وكأنهما يعلنان نهاية القصة.

****

دلف حازم ورأفت إلى مكتب اللواء زكريا بعد أن استدعاهما الأخير، دعاهما إلى الجلوس قائلا في هدوء:

مبارك انتصاركما على تلك المنظمة الخطيرة.

بادلاه تهنئته في احترام، خاطب حازم في ابتسامة حانية:

ومبارك لك يا حازم تنفيذ انتقامك الخاص وغلق تلك القضية للأبد.

هز حازم رأسه إيجابا في صمت، أردف اللواء في حزم :

هيا يابطل عد إلى عملك من جديد فالوطن يحتاج إليك.

تنحنح حازم ثم قال:

لقد قدمت لك استقالتي من قبل ياسيادة اللواء.

وأنا لم أقبلها يا حضرة الرائد، هيا تسلم شارتك و مسدسك لتبدأ عملك من الغد.

قال حازم في نبرة مزجت بين الحزن و الأسى:

اعذرني يا سيادة اللواء، لكني لا أود العودة إلى عملي السابق، فقد أصبح لدي عمل أكثر أهمية وأشد ضرورة.

هتف اللواء في حدة:

تقصد مهماتك الليلية؟

أومأ حازم برأسه إيجابا في صمت و هو يتحاشى النظر إلى وجهه، فأردف اللواء في صرامة :

لا يوجد ما هو أهم من عملك يا حازم لمحاربة الخارجين عن القانون ومعاقبة الفسدة.

أجابه حازم في عناد :

القانون لا يحمي الضعفاء يا سيدي، فهو يبدأ دوره دائما بعد أن يذهب الضعفاء ضحية المجرمين الذين يرتعون في الأرض فسادا مستغلين ثغرات القانون وبائعي الذمم.

صاح اللواء في صرامة :

القانون سيبقى دائما الحامي الأول والأخير و الوحيد للوطن من أعدائه.

صاح حازم في حدة مباغتة :

لم لم ينقذ رقية إذن؟

حاول رأفت تهدئة صديقه، لكن اللواء أشار إليه أن يتوقف ثم قال :

وهل تظن أنك بأفعالك الصبيانية تلك ستنقذ الضعفاء والمساكين.

أجاب حازم في عناد :

نعم، على الأقل سأزرع في قلوبهم الخوف من الإقدام على تنفيذ جرائمهم بمنتهى البجاحة والوقاحة.

انعقد حاجبا اللواء في حدة دون أن يتكلم، هب حازم واقفا وهو يقول في احترام :

اسمح لي بالمغادرة فأنا في أشد الحاجة لأخذ قسط من الراحة.

أومأ اللواء برأسه في بطأ ثم قال:

اذهب الآن لتستريح، وتذكر أنه لا يمنعني من التعامل معك في حزم سوى كوني أشعر بالذنب لما حدث لخطيبتك عليها رحمة الله.

قال حازم في مرارة عميقة:

لا داعي للشعور بالذنب يا سيادة اللواء، أنا من قصرتُ في إنقاذها.

غادر حازم المكتب على الفور، فالتقط اللواء نفسا عميقا وهو يغمغم في حزن :

لقد ضاع حازم في دوامة الإنتقام للأبد.

لم ينبس رأفت ببنت شفة، وإن دلت ملامحه على الحزن العميق.

****

وقف حازم أمام قبر حبيبته في صمت وخشوع مهيب، تطلع إلى القبر الصامت في سكون يوحي بانفصاله عن العالم الخارجي، أغمض عينيه محاولا استيعاب ما حدث لها، في أعماقه كان

يتمنى أن يكون ما حدث مجرد كابوس لعين سيستيقظ منه ليجدها أمامه تبتسم ابتسامتها المشرقة، لكنه فتح عينيه فطالعه ظلام حالك وقبر موحش، ابتلع ريقه في صعوبة محاولا البحث عن كلمة مناسبة، كان يعلم أنها تنظر له من مكانها تنتظره أن يتحدث، استجمع شجاعته قائلا في حرج بالغ:

حبيبتي، لقد أوحشتيني كثيرا، صرتُ بعدك في خواء، يعلم الله أنني أود اللحاق بكِ، لكن القدر لم يأذن بذلك بعد، لقد.. لقد انتقمت لك ممن دفعكِ ل....

لم يستطع إكمال عبارته، انسالت الدموع من عينيه في غزارة وهو يلوم نفسه على عجزه عن إنقاذها، مسح دموعه قائلا في مرارة :

في الحقيقة لستُ أنا من قتلته، صديقي رأفت هو من قتله، ولكني لا أرى في ذلك بأسا، المهم أنه قتل مع رجاله الثلاثة، هل تشعرين بالراحة الآن، أتمنى ذلك من كل قلبي، عاهدتُ الله أن أبقى طوال حياتي محاربا الجريمة و المجرمين إلى أن ألقاكِ، وداعا يا حبيبتي.

غادر حازم في بطأ كأن نفسه تأبى المغادرة، لكنه لم يستطع المكوث أكثر من ذلك، جلس خلف عجلة القيادة، تطلع عبر المرآة الداخلية إلى الكلبين الجالسين في تحفز، أدار محرك السيارة ثم انطلق بها و هو يقول مخاطبا الكلبين في صرامة وحزم:

استعدا جيدا، فأمامنا الليلة مهمة جديدة.

وزمجر الكلبين في شراسة غاضبة.

****